بقلم: د. ميخائيل ف فايغة*

نظرة أخرى على التأرخة الإسرائيلية

تعرض تمار برغر (١٩٩٨:٢٠) في كتابها "ديونيسوس في سنتر" موضوع بحثها بالطريقة التالية:

هذه قصة عن مكان والمكان هو: بلوك ٦٩٠٣، "ديزنغوف سنتر"، حي نورديه سابقاً، حي الأكواخ (بيوت الصفيح)، أرض الحناوي، كرم الحناوي، بيت تسبيا غوطسدينر، الذاكرة الحادة لـ: "تسبيا غلزرمان" كراستينستاو سلالة يشورون، "حفرة ضخمة"، مقال إفتتاحي لصحيفة "هآرتس"، عقار مندلمان...، فدرمان، بيلتس، أراضي غائبين، الحدود الشرقية لتل أبيب، ملف رقم ٣-٥٥٩-٣٩٣ في الأرشيف التاريخي للبلدية، المحطة التاسعة للخط رقم ٥ في مساره من الجنوب إلى الشمال، أر ض رمل وكركار، مكان عمل، مظلة واقية من المطر[1].

تذكر قصة برغر بالحكاية الطريفة التي ساقها ميشيل فوكو في مؤلفه "ترتيب الأمور"، والمأخوذة من كتاب بورحاس. وتقتبس القصة إنسكلوبيديا صينية خيالية تستحضر حواراً غير منطقي في الظاهر بين حيوانات (Foucault ١٩٧٣،xv) .

ويتناول فوكو محدودية قدرة وعينا على تصور قصة يبدو منطقها الحتمي غير معقول بالنسبة لنا. قصة برغر تستعير أيضاً أوصافاً وكنايات من عوالم مختلفة، لا تتسق مع بعضها البعض من حيث التفكير المنطقي، والأهم أنها لا تتسق من ناحية الوعي التاريخي الإسرائيلي. فالدمج الذي تقترحه برغر يقوض المسلمات الصهيونية الأساسية، إذ أنها تسمي المجال - الحيز - باسم عربي وعبري، بيروقراطي وأدبي، اسم يعود للحاضر وآخر للماضي، اسم مأخوذ من التاريخ واسم مأخوذ من الذاكرة، اسم خاص (شخصي) وآخر جماعي.

من ناحية منطق التأرخة الإسرائيلية - سواء "القديمة" أو

* استاذ محاضر في قسم العلوم الجتماعية بجامعة بئر السبع

"الجديدة" – يعتبر تصور مثل هذه القصة غير ممكن، أو على الأقل يناقض الفكرة الأساسية في بلورة وتشكيل رواية تاريخية. فعن طريق كثرة وتعدد أسماء المجال تسعى برغر إلى القول بأنه لا يوجد للمجال اسم خاص به، ولذلك فإنه لا يعود لأحد وإنما يعود لنفسه فقط. في كتابة التاريخ المتعارف عليها في إسرائيل ثمة اسم للمجال، وهو ما يحدد بالتالي الملكية التاريخية والمسؤولية تجاه ما حدث في الماضي[٢].

هذا المقال يتفحص الكتابة والوعي التاريخيين الإسرائيليين من منظور كتاب واحد يشذ عن المنهجيات والتقاليد المتعارف عليها.

يشكل كتاب تمار برغر "ديونيسوس في المركز" محاولة لكتابة التاريخ بطريقة مختلفة، تقدم بديلاً سواء للمؤرخين الموالين للمؤسسة أو لخصومهم "المؤرخون الجدد". ويعد الكتاب مثالاً مميزاً في سعته ووعيه وإلمامه في مجال ما يسمى بالدراسات الثقافية[٣]. وقد تكون هذه هي المرة الأولى التي نصادف فيها نتاجاً يمكن وصفه ببحث تاريخي "بوست مودرني" (وفي الوقت نفسه أيضاً "بوست" صهيوني) وإن كانت درجة صحة هذا الوصف تبقى قابلة للنقاش. ولا يعالج الكتاب التاريخ فقط، بل يتناول بين ثناياه أيضاً مجالات السوسيولوجيا والإنثروبولوجيا و النقد الأدبي وبحث الهندسة المعمارية، فالمجالات المتعددة التي يتناولها الكتاب تشكل بطبيعة الحال جزءاً من الموضوع.

مع ذلك فإن الإدعاء بكون الكتاب يندرج في أبحاث ما بعد الحداثة، لا ينبع بالذات من القفز الحر بين نظريات ومناهج علمية مختلفة، وإنما من النظرة إلى المصادر والأصول، ومن أسلوب الكتابة ومن إختيار الإطار الفوقي التاريخي الذي يمكن الإنطلاق منه في سرد القصة. ونتيجة لذلك يظهر أبطال من نوع آخر لا يوجد في التأرخة الإسرائيلية حتى الآن مكانٌ أو حيز لهم. كذلك فإن الكتاب يطرح مسائل تتعلق بالحقوق التاريخية والمسؤولية القومية ضمن منظور مختلف.

يتمحور الكتاب حول سيرة موقع جغرافي محدد، وهو المكان الذي يقوم عليه اليوم مركز التسوق "ديزنغوف سنتر" في تل أبيب، فيتحرى ماضيه منذ أن كانت الأرض بملكية ملاك عربي من يافا، مروراً بتحوله إلى حي يهودي يقطنه أبناء الطبقة المتوسطة الدنيا، وإنتهاء ببناء المركز التجاري وبرج الطوابق المقام فوق المركز (السوق). هذه الفترات الثلاث تشكل الأجزاء الثلاثة التي يتكون منها الكتاب. وتكثر المؤلفة من استخدام الأدب النظري والتاريخي في مجال بحثها، لكنه يستشف من الكتاب أنها لا تدخر في النقد تجاه المؤسسة الأكاديمية وأنها فضلت الكتابة على هامش هذه المؤسسة.

هذا الكتاب المُحطِّم للحدود يمكن وصفهُ ككتاب تاريخ حتى وإن كان لا يخلع على نفسه هذه الصفة. في صفحة الغلاف الأخيرة قُدِّمُ الكتاب على أنه "نتاج أدبي مثير". مع ذلك، يمكن القول أن الكتاب يمثل ثمرة بحث يرتكز في جزء منه إلى تنقيب وبحث في الأرشيفات، ويعتمد في جزء آخر على مقابلات، فيما يستند الجزء الثالث إلى تحليل أدبي. كما ويأتي الكتاب مصحوباً بسلسلة من الملاحظات والتنويهات الدقيقة فضلاً عن التطرق إلى مراجع وإثباتات نظرية كما هو متبع في الكتابات الأكاديمية[٤]. يمكن إثارة تساؤلات فيما يتعلق بمنهج البحث الذي إتبعه الكتاب، وانتقاد قائمة المصادر، وتفحص ومراجعة اختياراته النظرية واقتراح تحليلات بديلة. كذلك يمكن القول أن الكتاب ليس سهلاً للقراءة، أحياناً بسبب الحاجة إلى توفر معرفة نظرية مسبقة، وأحياناً نظراً لأن المؤلفة تترك عبارات مبهمة ودراماتيكية دون إعطاء تفسير إضافي. إن صعوبة القراءة هي لبُّ الموضوع: فكسر قوالب التفكير المألوفة لدى القارىء يعني بالضرورة صعوبة في تفسير وحل لغز المكتوب.

مع ذلك فإن الإدعاء المطروح هنا لا يبدو حول ما إذا كان الكتاب "مقروءاً" أو أن البحث "جيد" بالمستويات الأكاديمية المتعارف عليها. ولا يبدو أساساً أن مسألة قبول الكتاب من جانب المؤسسة الأكاديمية الإسرائيلية مطروحة على رأس اهتمام المؤلفة. فضلاً عن ذلك فإن صدور الكتاب خارج نطاق الأكاديمية يدل على فتح ميادين خطاب جديدة، تتبنى الخطاب العلمي دون أن تكون مقيدة أو موجهة من قبل اعتبارات مبنى القوة لدى العالم الأكاديمي. وتنبع أهمية الكتاب فيما تنبع، من وجوده على تقاطع معان في الهستوريوغرافيا الصهيونية و هستوريوغرافيا دولة إسرائيل، ومن الموقف النقدي المستشف منه تجاه البحث السابق له. فموقعه على هامش الكتابة الأكاديمية المأسسة يسهل كونه محاولة مُجَدِّدَة ويُمكنه من اتخاذ موقف نقدي تجاه منظومة إنتاج المعرفة العلمية.

قبل أن أسوق حججي وإدعاءاتي حيال التأرخة الإسرائيلية

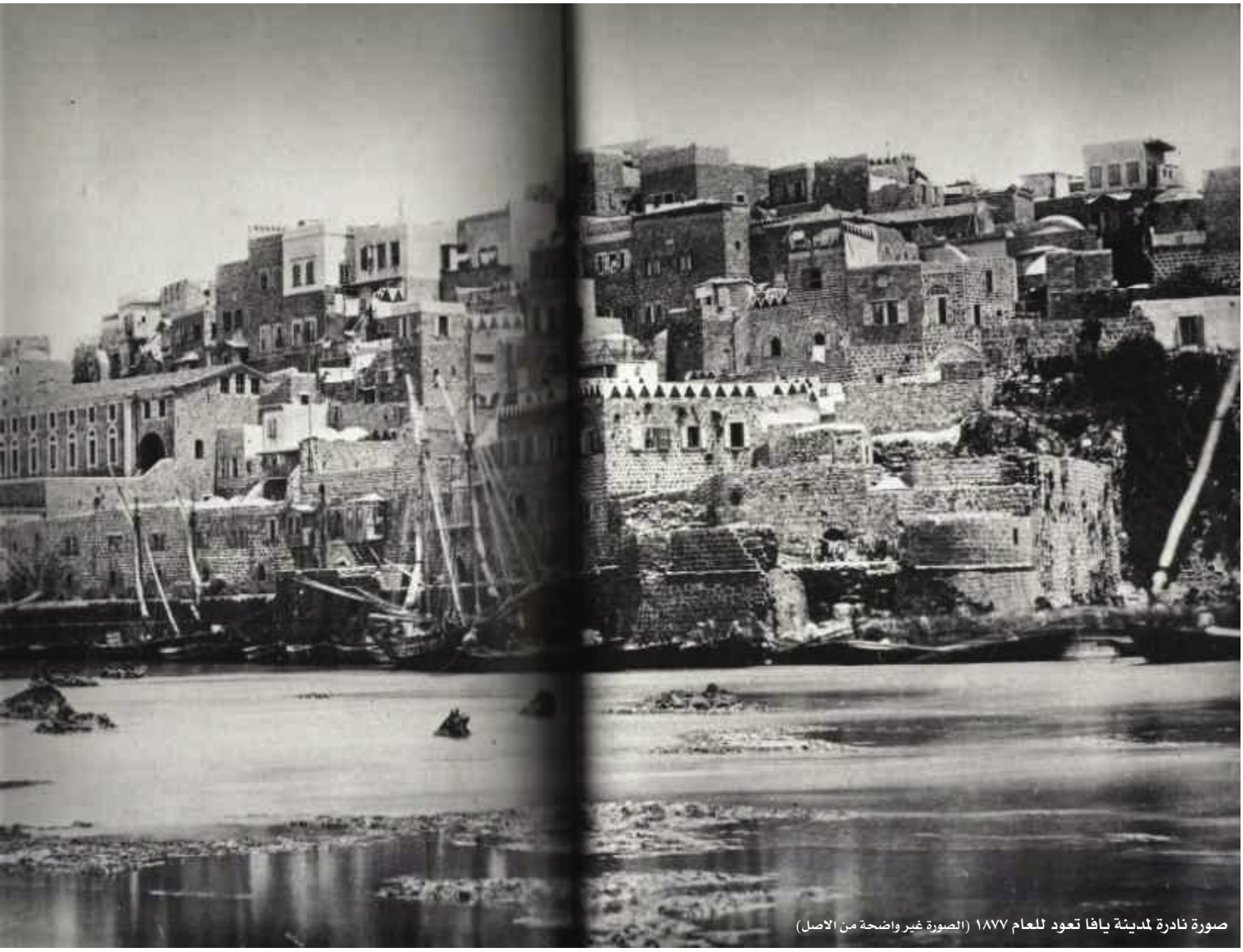

صورة نادرة لمدينة يافا تعود للعام ١٨٧٧ (الصورة غير واضحة من الاصل)

والبديل الذي يقترحه الكتاب لهذه التأرخة أود الإشارة إلى ملاحظتين عامتين. الأولى تتناول المصطلح المركزي "هستوريوغرافيا". جل الكتابة التاريخية في إسرائيل تتم بطبيعة الحال من قبل مؤرخين، ولكن ليس بأقلامهم فقط. في مقالي هذا يتناول مصطلح هستوريوغرافيا كل عرض بحثي للماضي، بمعزل عن المجال النظامي أو المنهجي الذي يتم هذا البحث على أساسه. معظم الأمثلة التي يوردها المقال مأخوذة من أبحاث في مجال التاريخ، والتي تكثر من تناول تاريخ البلاد خلال القرن الماضي، غير أن أطروحات وحجج المقال تتناول مجمل نظرة ومعالجة المؤسسة الأكاديمية الإسرائيلية للماضي الصهيوني والإسرائيلي. ويثير كتاب برغر تساؤلات فيما يتعلق بالوعي التاريخي والذاكرة الجماعية لدى المجتمع الإسرائيلي، ومن هنا إمكانية سحب أطروحاتي على مقولات تتعدى مجال التاريخ المحض فقط.

الملاحظة الثانية تتناول منهجية استخدام كتاب واحد لغرض إجراء تعميمات واسعة. وفي الوقت الذي أدعي فيه بالتأكيد أن كتاب برغر يعتبر عملاً – كتاباً – ريادياً، إلا أنني لا أزعم أنه فريد من نوعه، أو أن هناك مكونات وعناصر يحتويها الكتاب بين دفتيه لا تظهر، جزئياً أو في معظمها، في كتابات ومؤلفات باحثين آخرين. وقد استعنت خلال المقال بمؤلفات وكتابات باحثين من مناهج ومدارس مختلفة تثبت أن كتاب برغر ليس متفرداً في منطلقاته ورؤاه. لذلك، لا شك في أن المقال غير منصف لمضمار

تنصرف الهستوريوغرافيا الإسرائيلية إلى الانشغال في مسائل بناء الأمة والدولة وإدارة الصراع القومي، وتتصدى لمسألة وحدانية الرواية الحقيقية الوحيدة في مقابل شرعية الروايات المنافسة.

وتطرح قراءة الكتاب السؤال التالي: هل يمكن الخروج من هذا الخطاب والوصول إلى خطاب ما بعد صهيوني بالمعنى العميق للكلمة؛ خطاب لا يستبدل فقط وصف الاحتلال والتحرير بوصف الطرد والاقتلاع، وإنما ينطلق كلية من مسائل عدالة المشروع الصهيوني وتأسيس أو إنشاء الكيانات القومية المنافسة؟

البحث التاريخي الواسع.

إن استخدام كتاب برغر يأتي أساساً كوسيلة سهلة للمحاكمة والدراسة عند مناقشة كتابة التاريخ وعرض الماضي في إسرائيل. لكن الاختيار لم يكن اعتباطياً، فما يهمني هو إعطاء الكتاب المكانة الخاصة التي يستحقها. ويشف هذا المقال عن إدعاء مؤداه أن كتاب برغر، الذي رأى النور في العام ١٩٩٨، لم يحظ في الأكاديمية الإسرائيلية – ناهيكم عن خارجها – بالاهتمام الذي يستحقه، وأن أهميته ومساهمته الكامنة لم يُفهما بالقدر الكافي. ويأتي تركيز المقال على الكتاب على أمل إثارة الاهتمام والنقاش حوله، ومن خلاله أيضاً حول سكة ومسيرة الهستوريوغرافيا الإسرائيلية في الماضي والمستقبل.

تنصرف الهستوريوغرافيا الإسرائيلية إلى الانشغال في مسائل بناء الأمة والدولة وإدارة الصراع القومي، وتتصدى لمسألة وحدانية الرواية الحقيقية الوحيدة في مقابل شرعية الروايات المنافسة.

وتطرح قراءة الكتاب السؤال التالي: هل يمكن الخروج من هذا الخطاب والوصول إلى خطاب ما بعد صهيوني بالمعنى العميق للكلمة؛ خطاب لا يستبدل فقط وصف الاحتلال والتحرير بوصف الطرد والاقتلاع، وإنما ينطلق كلية من مسائل عدالة المشروع الصهيوني وتأسيس أو إنشاء الكيانات القومية المنافسة؟

يسعى كتاب برغر إلى تفحص إمكانية بديلة، لكن الإجابة المستشفة منه على هذا السؤال ليست قاطعة. ومن هنا تهدد المسائل "الكبرى" طوال الوقت بالعودة إلى صدارة البحث والنقاش.

١- هستوريوغرافيا قديمة وجديدة: أوجه الاختلاف والتشابه

لعبت الهستوريوغرافيا التي تسمى قديمة، صهيونية، مؤسسية أو تبريرية – أو على الأقل صورتها النمطية – دوراً كبيراً في تشكيل وتصميم غريمتها التي أطلق عليها هستوريوغرافيا جديدة، إصلاحية، نقدية أو تقويضية[٥].

وتعتبر هذه التوصيفات بمثابة تعميمات واسعة جداً وغير دقيقة. ثمة جزء لا يستهان به من الكتابة – التأرخة – التي تتناول الماضي الإسرائيلي، لا يندمج كما يجب داخل هذه المربعات، فالاختلاف داخل المجموعات يفوق الاختلاف بينها، كما أنها (أي المجموعات) مفتوحة أمام التأثير المتبادل. وعليه فإن التحدث عن تواصل أو عن حقل متنوع، أصح من التحدث عن مجموعتين محددتين أو واضحتي المعالم.

بعد أن أشرت إلى هذه التحفظات، سأحاول تتبع السجال التاريخي الذي يضع الجانبين في مواجهة بعضهما أو على طرفي نقيض، خاصة وأن طرحي المبدئي يضع المعسكرين (التوجهين) في خانة واحدة في مواجهة ما يمثله كتاب برغر.

على الرغم من كل الاختلاف والتناقض بينهما إلا أن التوجهين التاريخيين – القديم والجديد – يتشابهان في عدد من النقاط المبدئية، وسيتفق الكثيرون من ممثليهما مع هذا الرأي. فالمؤرخون القدامى يؤكدون التشابه مع المؤرخين الجدد بغية تزكية وتدعيم الادعاء بأن الجدد يتبجحون بهالة لا يستحقونها، ذلك لأن استنتاجاتهم الرئيسية وطرق البحث التي يقترحونها ظهرت قبل وقت بعيد في مؤلفات خصومهم. كثيرون من المؤرخين الجدد سيعترفون بأنهم لم يقطعوا مسافة كافية بعيداً عن المجموعة التي ينتقدونها، وبالقطع ليس على المستوى المنهجي. وفي الواقع ثمة تشابه بين الفريقين سواء على صعيد منهج البحث أو في مواضيع البحث. نتيجة لذلك فإن كلا الفريقين مقيدان من ناحية القدرة على التشابه.

كذلك فإن كِلا النهجين غير محررين من الرؤية الوضعية للتاريخ. فغالبية المؤرخين المؤسسين غير راغبين البتة في التحرر

عملياً فإن جل الكتابة التاريخية (التأرخة) التي تتم في إسرائيل، سواء على يد مؤرخين مؤسسين أو على يد خصومهم، هي كتابة وضعية ترتكز إلى الفرضيات الأساسية التالية: وجود موضوع تاريخي في مكان ما؛ إن بحثاً أرشيفياً دقيقاً يمكن أن يبني قصة تعكس "ما حدث حقاً"؛ كل ذلك ضمن قيود الزمن وقدرة الوصول إلى المواد. ويشار إلى المواقف الأيديولوجية والسياسية للباحث كمواقف خارجة عن نطاق البحث، في حين يعتبر تضمينها للبحث بمثابة شائبة منهاجية خطيرة بل وخيانة لمبادىء وأخلاقيات المنهج العلمي.

من هذه النظرة. هناك مجموعة مميزة معروفة بين المؤرخين الجدد تدعو صراحة لتأرخة نسبية ما بعد حداثية، لكن ثمة مجموعة أخرى تصر بالذات على تعزيز الأسس والمرتكزات الوضعية في التأرخة الإسرائيلية، وتنتقد المؤرخين المؤسسين بالقول أن إدعاءهم بالموضوعية والحياد المبدئي لا يصمد في اختبار الواقع.

عملياً فإن جل الكتابة التاريخية (التأرخة) التي تتم في إسرائيل، سواء على يد مؤرخين مؤسسين أو على يد خصومهم، هي كتابة وضعية ترتكز إلى الفرضيات الأساسية التالية: وجود موضوع تاريخي في مكان ما؛ إن بحثاً أرشيفياً دقيقاً يمكن أن يبني قصة تعكس "ما حدث حقاً"؛ كل ذلك ضمن قيود الزمن وقدرة الوصول إلى المواد. ويشار إلى المواقف الأيديولوجية والسياسية للباحث كمواقف خارجة عن نطاق البحث، في حين يعتبر تضمينها للبحث بمثابة شائبة منهاجية خطيرة بل وخيانة لمبادىء وأخلاقيات المنهج العلمي.

وتبرز بين الانتقادات الموجهة لـ "بوست صهيونيين" النقد المنبثق عن هامش الأكاديمية، والذي يحلل ظهور المؤرخين الجدد على أنه ظاهرة من ظواهر ما بعد الحداثة، التي تعكس تحللاً من القيم وتوجهاً مؤداه "الكل ذاهب"، وذلك كجزء من عملية الخصخصة التي تشهدها إسرائيل وكمصلحة محضة وجلية للهيمنة الإسرائيلية المتشكلة (غوتوين، ١٩٩٧).

هذا النقد، وبصرف النظر عن مسألة مشروعيته، يبرز حقيقة أنه لا توجد في إسرائيل على الإطلاق تقريباً كتابة تأريخية تتبنى مبادىء ما بعد الحداثة. فتيار أو توجه ما بعد الحداثة، بفرضياته الأساسية ووسائله المنهاجية وحساسيته الاجتماعية وأساليبه الكتابية، لم يتغلغل بعد بشكل ملموس في التأرخة الإسرائيلية وإن كان قد نفذ إلى مجالات نظرية معينة. ورغمْ أنه تطرح مراراً أجندة لكتابة تاريخية من هذا النوع، كما تطرح الحاجة الأيديولوجية لإعطاء شرعية لروايات شتى وتحطيم أو تجاوز الفرضيات الأساسية الوضعية ومنح تعبير أو صوت للمكبوتين، إلا أن الكتابة التاريخية تعتبر في المحصلة متخلفة حتى عن خططها وبرامجها الطموحة هي ذاتها. وفي الواقع ثمة انتقاد آخر تجاه أولئك الناطقين باسم هستوريوغرافيا ما بعد الحداثة، مؤداه أنهم انتقاديون تجاه ما كتب قبلهم، لكنهم لم يبينوا بعد موقفهم من أبحاث ما بعد الحداثة حول "اليشيوف" اليهودي وعن دولة إسرائيل. ويذهب هذا النقد (الطرح) إلى نقطة أكثر مبدئية، متناولاً الإشكالية الأساسية للنزعة غير البناءة، ولتعدد الروايات وأزمة التمثيل: فهل يمكن بدون رواية أو سرد متصل يرتكز إلى موضوعية صارمة، خلق بحث تاريخي جدير باسمه؟!

بكلمات أخرى، حتى إذا حاولت هستوريوغرافيا ما بعد الحداثة المساهمة في بحث ودراسة الماضي فإنها غير مؤهلة لذلك بحكم طبيعتها الساعية إلى تقويض أسس النظرية أو المنهج العلمي[٦].

السؤال الرئيسي الذي يطرحه المؤرخون الإسرائيليون إزاء التاريخ الإسرائيلي هو: كيف نشأت الدولة وتشكل المجتمع الإسرائيلي في سياق هجرة كبيرة وصراع مع حركة وطنية منافسة؟

هناك بطبيعة الحال أعمال وأبحاث أخرى، مثل تاريخ الطب والاتصالات أو تاريخ كرة القدم في إسرائيل، ولكن حتى هذه يمكن فهمها بمصطلحات إيضاح تشكل الأمة والدولة واستيعاب الهجرة والصراع القومي[٧]. الاختلاف الأساسي بين المؤرخين القدامى والمؤرخين الجدد يتمثل في مسألة الكيفية التي يجب إتباعها في بحث وفهم العملية. من هنا ينجم تشابه، مقرون بتضاد، في بحث العوامل التاريخية. فالمجموعات تختلف كاختلاف أنواع النبيذ فقط، واحده تبحث (تدرس) المنفذين،

ويشكل الادعاء القائل أن التأرخة القديمة خدمت المطالب القومية الصهيونية، حجر الزاوية في نقد المؤرخين الجدد، أما الادعاء المضاد فيقول أن حجج وادعاءات المنتقدين سبق وأن ظهرت بصيغة مشابهة في الدعاية العربية وفي تصريحات وبيانات مجموعات أيديولوجية أخرى، والتي قدمت الصهيونية كحركة كولونيالية إمبريالية مغتصبة. بيد أن بحث المؤرخين في التفسير والمنهج يخفي وراءه نقاشاً أو سؤالاً آخر وهو: ما هو المغزى الأخلاقي للصهيونية ولاستيلائها على البلاد؟

قسم من المؤرخين ينخرط في هذا الجدل طواعية، ويَجِدُ قسم آخر نفسه مقحماً فيه رغم إرادته، فيما يقول قسم ثالث أن هذا الجدل غير ذي صلة بعملهم المهني.

يتطرق كتاب برغر إلى مكونات وعناصر مختلفة في الكتابة التأريخية في إسرائيل وسوف أتعرض لعدد منها.

والأخرى تدرس المتضررين، او المنفذين من وجهة نظر أكثر انتقادية، لكن كليهما معاً يكملان البحث حول ذات الموضوع.

وتُعرَّف الصهيونية من قِبَل منتقديها على أنها نظام يهودي إشكنازي ذكري مهيمن، ويعني هذا النقد نقل التركيز البحثي إلى الطريقة التي تُشكِّلُ الصهيونية بها الـ "آخرين" بالنسبة لها. ولكن حتى الأبحاث التي تتناول تشكيل شخصية العربي/ الشرقي/ المرأة، لا تشذ عن المفهوم أو المنطلق الأساسي، المشترك للتأرخة على اختلاف اتجاهاتها ومشاربها، في بحث الرواية الصهيونية حول إنجازاتها وإخفاقاتها. هذا الأمر ينبع بصورة بدهية تقريباً من طبيعة التعريف اللفظي لمفهوم البحث النقدي: فهو يقدم نفسه على أنه متحرر من القيود الأيديولوجية والسياسية للبحث السابق (حتى ولو كان أحياناً يقدم نفسه كبحث مُجنَّد لصالح وجهة نظر منافسة) لكن نقده موجه صوب المؤسسات التي صاغت وصنعت منذ البداية تلك القيود ذاتها.

لهذا السبب فإن الخطاب التأريخي الإسرائيلي يستسلم ويذعن بسهولة شديدة للخطاب حول الحقوق وحول المسؤولية التاريخية، سواء بشكل مقصود أو غير مقصود.

ويشكل الادعاء القائل أن التأرخة القديمة خدمت المطالب القومية الصهيونية، حجر الزاوية في نقد المؤرخين الجدد، أما الادعاء المضاد فيقول أن حجج وادعاءات المنتقدين سبق وأن ظهرت بصيغة مشابهة في الدعاية العربية وفي تصريحات وبيانات مجموعات أيديولوجية أخرى، والتي قدمت الصهيونية كحركة كولونيالية إمبريالية مغتصبة. بيد أن بحث المؤرخين في التفسير والمنهج يخفي وراءه نقاشاً أو سؤالاً آخر وهو: ما هو المغزى الأخلاقي للصهيونية ولاستيلائها على البلاد؟

قسم من المؤرخين ينخرط في هذا الجدل طواعية، ويَجِدُ قسم آخر نفسه مقحماً فيه رغم إرادته، فيما يقول قسم ثالث أن هذا الجدل غير ذي صلة بعملهم المهني.

يتطرق كتاب برغر إلى مكونات وعناصر مختلفة في الكتابة التأريخية في إسرائيل وسوف أتعرض لعدد منها.

٢-الراوي ذو الصلاحية والصوت التقويضي:

تُروى التأرخة الإسرائيلية بصورة عامة على لسان كاتب مخول وضليع، يزن قوة المواد الموجودة بين يديه ويبني منها قصة. ويرتبط النمط السردي للراوي ذي الصلاحية والمعرفة بوجهة نظر وضعية يكون الواقع بموجبها موجوداً أو قائماً في مكان ما فيما يقوم الراوي بجمع ملامح هذا الواقع ليشكل ويصوغ منها رواية منطقية متماسكة تعكس واقعاً حدث بالفعل. وتعتبر صلاحية الكاتب، التي يكتسبها بحكم ارتباطه بجهاز أو هيئة مهنية تشرف عليه، عاملاً مهماً وحاسماً في التمييز بين التاريخ كتمثيل للماضي وبين وسائل تمثيل أخرى منافسة كالفن والذاكرة. هناك مثال على ذلك وهو مقال المؤرخة أنيتا شابيرا (١٩٩٤) حول ذاكرة معارك اللطرون. وقد تفحصت شابيرا تسلسل نظرة ممثلين ومجموعات إلى هذه القضية التاريخية وعرضت تشكيلة من الروايات المتناقضة التي تعبر عن مصالح المجموعات المختلفة. استهلت شابيرا مقالها بالفصل المسمى "قصة ما حدث" والذي عرضت فيه "المعرفة التاريخية" القائمة حول الحادث.

أرض الحناوي .. حيث أقيم الديزنغوف سنتر

وبعرضها لـ "قصة ما حدث" التأريخية، أعادت المؤرخة تشكيل هرمية المعرفة مجدداً، والتي وضعت فيها النظرية التي تمثلها في موضع مُفضل (هذا ما لاحظه رام ١٩٩٦). مثال آخر هو كتاب زئيف تسحور (١٩٨٨) "الصحوة". ويتحدث الكتاب عن مجموعات سكانية تعرضت للغبن في التاريخ الصهيوني وفي التأرخة الصهيونية، وهو يخاطب الجمهور الواسع ويشذ عن وعي عن الصيغة المألوفة للبحث الأكاديمي. وعمد تسحور في مقدمة كتابه إلى إجراء تمييز واضح وصريح بين التاريخ الذي يُكتب في إطار أكاديمي والذي يكون مخصصاً أو موجهاً للزملاء والطلبة، وبين الكتابة الموجهة لجمهور قراء أوسع. وهو بهذا الادعاء يُعيد تشكيل ترتيب (مستوى) المعرفة بين أنواع مختلفة من المستهلكين. وكذلك المكانة المهنية للنظرية أو المنهج العلمي.

يعتبر المؤرخون الجدد مجموعة متنوعة تنقسم طبقاً لنظراتها أو موقفها حيال مسألة الموضوعية العلمية (رام ١٩٩٦). قسم من هؤلاء يتبنون توجهاً مشابهاً جداً لتوجه المؤرخين القدامى، بل وأكثر تطرفاً منه أحياناً. وهم يقارعون خصومهم حول نزاهة التاريخ الوضعي بطرحهم لوقائع أُخفيت في الماضي، أو باقتراحهم لتفسيرات بديلة لحقائق معروفة. وينزع هؤلاء في كتابتهم النقدية عن مجموعات سياسية واجتماعية دور صانعي الأساطير والذكريات ليلقوا به على المؤرخين أنفسهم، والذين يفترض بهم في الظاهر أن يقوموا بتحطيم هذه الأساطير. ومن ناحيتهم فإن المؤرخين القدامى يتحملون المسؤولية عن طمس وإخفاء وإنكار الحقائق التاريخية القائمة والتي يمكن فهمها وإدراكها بناء على التفكير الوضعي التقليدي. بيني موريس (١٩٩٦ ، ١٩٩٧) الذي يعد أكثر المؤرخين الجدد أيديولوجية، خصص عدة مقالات لتفحص وتحري التشويهات التي تمت في وثائق مركزية.

وتأتي جهوده في التصدي للتحريفات في مصادر ومؤلفات مؤرخين آخرين مُتسقة مع ما ذهب إليه المؤرخ الفرنسي بيير نوريه (١٩٩٣) والذي قال إن صراع التاريخ ضد الذاكرة يبرز بوتيرة أشد عندما يحاول بعض المؤرخين "تنظيف" كتابات ومؤلفات من سبقهم من مؤرخين من بقايا ومخلفات الذاكرة التي علقت بهم.

هذه الرؤية التأريخية الوضعية تعرضت لهجوم شديد من جانب باحثين نقديين آخرين.

يقول إيلان بابه (Pappe ١٩٩٥) إن استخدام الأرشيفات الصهيونية يعتبر في حد ذاته أمراً مريباً منذ البداية. وعلى رأيه فإن الذين يكتبون تاريخاً صهيونياً ويهودياً يحاولون الجمع بين نقيضين: توجه أيديولوجي ووضعية علمية. ويعتقد هؤلاء أن "الحقائق" الموجودة في الأرشيفات، المكرسة أساساً لخدمة أهداف قومية وسياسية، "تبرهن" على صدقية الرواية الصهيونية. فالبحث الوضعي ينسخ وجهة نظر صانعي الوثائق وبذلك فهو يخدم أهدافاً قومية[٨].

يقول إيلان بابه (Pappe ١٩٩٥) إن استخدام الأرشيفات الصهيونية يعتبر في حد ذاته أمراً مريباً منذ البداية. وعلى رأيه فإن الذين يكتبون تاريخاً صهيونياً ويهودياً يحاولون الجمع بين نقيضين: توجه أيديولوجي ووضعية علمية. ويعتقد هؤلاء أن "الحقائق" الموجودة في الأرشيفات، المكرسة أساساً لخدمة أهداف قومية وسياسية، "تبرهن" على صدقية الرواية الصهيونية. فالبحث الوضعي ينسخ وجهة نظر صانعي الوثائق وبذلك فهو يخدم أهدافاً قومية[٨].

وعلى سبيل المثال، فقد أجمل بابه (٢٠٠٢، ٢١٤)، بعدما ناقش قضية تيدي كاتس، والإدعاءات المتعلقة بمذبحة "الطنطورة" وإمكانية الاستعانة بشهادات لاجئين فلسطينيين: "تدل قضية كاتس على الأهمية العليا الكامنة في استرجاع حرب ١٩٤٨ عن طريق الاستعانة بشهادات ضحاياها، وليس فقط على أساس وثائق الذين يجعلون من أنفسهم ضحية لها".

مع ذلك فإن أبحاث بابه وأبحاث آخرين ممن يتفقون مع نهجه تلقى صعوبة في الخروج عن المبادىء الوضعية. ويقترح هؤلاء خطة وأجندة ويوجهون نقداً شديداً للتاريخ الوضعي، لكن بديلهم يظل ضبابياً غامضاً، فيما عدا استخدام قصص حياة الضحايا وهو ما يتسق ويندمج تماماً، من ناحية عملية، مع البحث الوضعي، ولا يشكل بالذات نقضاً له. وتعني الوضعية أيضاً تغطية لعمل المؤرخ الذي يمثل سيرورة تشكيل وبلورة موضوع علمي. ويؤكد المؤرخون الجدد على إخفاء الخلفية الاجتماعية والسياسية للباحث، لكن هذه المسألة تحمل معنى أوسع بكثير.

ويشارك خطاب الأكاديمية الوضعي في تشكيل وبناء علاقات القوة والفوارق الطبقية. وحيث أن هذا الخطاب هو الذي يرسم ويصوغ الصورة المهنية للمؤرخين فإنه يحدد بذلك موقعهم الخاص في ميادين القوة. فضلاً عن ذلك فهو جزء من عملية نسخ علاقات القوة في المجتمع، ذلك لأن الاعتماد علىالوثائق يُخرِج من التاريخ أولئك الذين لم يشتركوا في انتاج تلك العلاقات بحكم وجودهم في مكانة متدنية، نظراً لافتقاد الموارد أو بسبب اللجوء إلى أُطر اقتصادية ترتكز إلى الثقة الشخصية. لهذا السبب فإن بحث معدومي القوة في المجتمع يجب أن يتصدى لمسألة المصادر وموثوقيتها. فالكتابة المستندة إلى وثائق أرشيفية يمكنها بسهولة نسخ التمييز الذي أدى منذ البداية إلى كتابتها. لكن ذلك لا يشكل ضرورة: فقد بين باحثون كثيرون كيف تُمكِّنُ الوثائق الرسمية من استخراج قصة المقموعين بالذات، وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى توجه "هانال" الفرنسي (أنظر: Huppent ١٩٩٧. فلتر بنيامين (١٩٩٦) وصف هذا المطلب على النحو التالي: "فرك التاريخ بعكس إتجاه الفرو".

فاختيار منهج البحث غير الوضعي يمكن أن يحمل معنى سياسياً من السعي إلى تقويض وسائل إعادة انتاج المعرفة وحتى تقويض النظام القائم.

جدير بالإشارة أنه وفي الوقت الذي ما زال فيه ميدان التاريخ الإسرائيلي في بداية مواجهة تداعيات انقلاب ما بعد الحداثة، فإن ثمة ميادين ومجالات أخرى أضحت تمر في أوج عملية تغيير أو في وضع تتعايش (تتواجد) فيه أنواع مختلفة من الكتابة جنباً إلى جنب. فبحث التجليات الثقافية – الأدب، الشعر، السينما (غريتس، لوبين ونئمان ١٩٩٨) – لا يمكن له إلاّ أن يُذوِّتَ التغييرات التي طرأت في هذه الميادين في أرجاء المعمورة.

في ميدان علوم الاجتماع، تحتل الإنثروبولوجيا مكانة خاصة. وكان هذا المجال قد اجتاز انقلاب ما بعد الحداثة في مرحلة مبكرة وبصورة راديكالية، ويرجع ذلك فيما يرجع، إلى كونه المسؤول عن تمثيل الآخر في المجتمع الغربي[٩]. وفي الوقت الذي ما زال فيه معظم الإنثروبولوجيين الإسرائيليين يتمسكون بالمبادىء الوضعية، فإن هناك إمكانية مشروعة بل ومشرفة لكتابة مختلفة تتجاوز التقسيم الفظ بين الباحث والمبحوث، بين الذات والموضوع.

ويتحدث الكثيرون من الإنثروبولوجيين الإسرائيليين عن

كان حناوي هو مالك الأرض التي أُقيم عليها فيما بعد المركز التجاري. وتفتح برغر السجل المتعدد الاتجاهات والرؤى في ذاكرة ديفيد بينو وتعابير وجهه عندما قرأ أمامه البيان الرسمي عن جريمة القتل. وتمضي برغر مقتبسة عن الصحف العبرية في تلك الفترة ثم تنتقل إلى التقرير الذي نشر عن الحادث في الصحف العربية. بعد ذلك تنقل تفاصيل شهادة الوفاة وتعود لوصف حالة الطقس. ولا تغفل برغر الإشارة إلى أنه كان يعرض في ذات الوقت على شاشة دار السينما المجاورة فيلم "جيليوتينا". وتتفحص في مكان لاحق ما يورده أرشيف منظمة "الهاغاناه" عن الحادث. من ثم تنتقل إلى وصف ما حدث من وجهة نظر مُؤَرِّخه مُخوَّلة معترفة أن هذا الوصف يعاني من نقص وخلل.

مغزى طريقتهم أو منهجهم العملي، وكتب عدد منهم عن تجربتهم الخاصة وما يرافقها من طمس وإخفاء للمقولات والمفاهيم. يورام بيلو (١٩٩٧) على سبيل المثال وصف النواحي الشائكة الكامنة في الكتابة والبحث في مواجهة مبحوثين يستغلون النتاجات الأكاديمية لأغراضهم الخاصة، ويحطمون بذلك التناقض أو التضاد القائم بين الباحث والمبحوث. وذهب باحثون آخرون خطوة أخرى إلى الأمام ليحطموا الفرضيات الأساس الوضعية من خلال كتابة البحث في حد ذاتها. مثال على ذلك نجده في أبحاث تمار إليئور (١٩٩٢؛ ١٩٩٨) حول التوجهات في أوساط النساء الحريديات والمتدينات الصهيونيات، والتي تعطي مكانة كبيرة للمؤلفة ولموقعها في مضمار البحث.

وتتفحص سمدار لبىء (lavie ١٩٩٠) الجذور الإثنية في العلاقات بين الإشكنازيين والشرقيين في المجتمع الإسرائيلي من خلال البيوغرافيا الشخصية لها (للباحثة ذاتها) كإمرأة شرقية، وبضمن ذلك عبر مراقبة بحثية في إفريقيا، والتي وجدت فيها نفسها معرفة كـ "بيضاء".

نلاحظ إذن أن الباحثين الذين يدرسون تشكيلة الهويات في المجتمع الإسرائيلي، لا يستطيعون تجاهل معنى وأبعاد العمل الذي يقومون به كجزء من صراعات القوى التي يبحثونها.

فكيف تواجه برغر هذه المسائل؟ تتخلى برغر منذ الصفحات الأولى في كتابها عن مكانة المؤرخة المخوَّلة التي تلم بكل شيء. وتصف في مؤلفها حدثاً دراماتيكياً: قتل أديب حناوي في تقاطع طرق "الملك جورج" و "ديزنغوف" في العام ١٩٩٣.

كان حناوي هو مالك الأرض التي أُقيم عليها فيما بعد المركز التجاري. وتفتح برغر السجل المتعدد الاتجاهات والرؤى في ذاكرة ديفيد بينو وتعابير وجهه عندما قرأ أمامه البيان الرسمي عن جريمة القتل. وتمضي برغر مقتبسة عن الصحف العبرية في تلك الفترة ثم تنتقل إلى التقرير الذي نشر عن الحادث في الصحف العربية. بعد ذلك تنقل تفاصيل شهادة الوفاة وتعود لوصف حالة الطقس. ولا تغفل برغر الإشارة إلى أنه كان يعرض في ذات الوقت على شاشة دار السينما المجاورة فيلم "جيليوتينا". وتتفحص في مكان لاحق ما يورده أرشيف منظمة "الهاغاناه" عن الحادث. من ثم تنتقل إلى وصف ما حدث من وجهة نظر مُؤَرِّخه مُخوَّلة معترفة أن هذا الوصف يعاني من نقص وخلل. "ولكن" أضافت تقول "وإلى جانب التقارير والبلاغات الرسمية، يظهر الشهود" (برغر ١٩٩٨، ص١٤). هؤلاء الشهود يناقضون، في شهاداتهم، بعضهم البعض وكذلك التقارير الرسمية.

الشيء المميز في كتابة برغر لا يتمثل في المواد التي تقوم بعرضها. هناك مؤرخون لا يحبذون اللجوء إلى التوثيق الشفوي، لكن الكثيرين لا يتوانون عن القيام بذلك. أغلبية المؤرخين لن تعبأ مثلاً بمعرفة اسم الفيلم السينمائي الذي عرض في ذلك اليوم، بينما سيثمن آخرون المحاولة الرامية إلى إحياء روح تلك الفترة. كذلك فإن التناقضات بين الوثائق وبين الشهود ليست بالكشف الجديد وإنما هي نقطة الانطلاق لعملية التفسير التي يقوم بها المؤرخ المهني.

الشيء الخاص في سرد برغر يتمثل في أن عمل المؤرخ – التنقيب في الأرشيفات واستعراض صحف الفترة المعنية وإجراء المقابلات مع الشهود ومصادر المعلومات – لا يتوارى أو يختفي تحت غطاء نص جازم أو معتمد. فبمقدار ما تحاول المؤلفة استعادة صورة الواقع "كما كانت" فإنها تعطي بذلك حضوراً أكبر لعملية بنائها وتشكيلها بالذات، وهي تقول بذلك ضمناً أن هذا المشروع الوضعي محكوم عليه سلفاً بالفشل.

وتخرج برغر في أماكن مختلفة من الكتاب، وبشكل متعمد، عن روايتها الجازمة، ويبرز هذا الأمر في إضافة سطور كما هي بحرفيتها الواردة في النص المقتبس منه. وتُشير إلى قائمة

ولعل ما يبدو لافتاً للنظر في شكل خاص هو الطريقة التي تكتشف فيها (المؤلفة) سيرة عائلة حناوي. ولم تكن نقطة البداية سهلة حسب قول برغر إذ أن "الأملاك الكثيرة التي تركها أبناء عائلة حناوي في وطنهم عندما خرجوا منه في شتاء ١٩٤٨ – البيارة، البيوت، الأموال، الأرض والوثائق التي تثبت كل شيء – اختفت في الظاهر كلياً أو غيرت وجهها جذرياً" (نفس المصدر ٢٣).

لكنه يمكن العثور على "حناوي" في مكان غير متوقع: في وثائق المؤسسات الصهيونية التي كانت إحدى أهدافها بالذات هي محو العرب من الذاكرة.

أراضي وإلى جانبها سنوات شرائها، تمتد فوق ثلاث صفحات كاملة. وتصف برغر حي نورديه كحي إشكنازي بالأساس، مقيمة ادعاءها على استعراض أسماء جميع أفراد العائلة في الحي ضمن قائمة طويلة.

وتصف سكان الحي كحرفيين صغار، مضيفة قائمة طويلة من المهن. وتفعل برغر الشيء ذاته فيما يتعلق بقائمة الحوانيت التي يضمها المركز التجاري، مفصلة إياها على اختلاف أنواعها، وهي بذلك تتيح للقارىء استخلاص استنتاجاته بشكل مستقل. وهي لا تتوقع من القارىء الاعتماد على تعميماتها ولذلك تعرض المصادر إلى جانب التحليلات المرفقة بها في ذات النص. ينتج عن ذلك بقاء الكثير من التفاصيل والحيثيات التي لا أهمية لها، والتي لا يخدم عرضها أي ادعاء نظري كما أنها لا تنطوي على شأن خاص. فما هي أهمية ما إذا كان سكان حي "نورديه" يسمون إليالي، الكسنبوم، أولر، أو شباخ وشبلي؟ فهذه من النوافل التي عادة ما يقوم أي مؤرخ مهني بإلقائها وإحالتها بعد انتهاء بناء الرواية أو القصة المتسلسلة والمنطقية إلى الملاحظات (الهوامش) أو حتى إلى خارج الكتاب. وتنقل برغر إلى التاريخ الذي تكتبه أجزاء منتقاة من الأرشيف الذي قامت بجمعه. ويعتبر الكتاب أيضاً عدا عن كونه كتاب تاريخ، "مكان ذاكرة" يحفظ أسماءً ومهناً وتفاصيل ثانوية وكل ما يوصف بالنوافل في الكتابة التأريخية المألوفة. فبواسطة الحفظ أو التخليد للمواد الخام يلقي النص "نظرة معاكسة" صوب الكاتبة، ويبقى بدرجة معينة ومحدودة رافضاً لمحاولاتها في إعداده وتحريره.

أحياناً تقدم برغر عملية البحث والجمع دون أن تتطرق إلى أي معطى. ويظهر عمل المؤرخة في نهاية المطاف دون ناتج ودون تاريخ. وهي بذلك تعلن عن وجودها كـ "عمل" أو "دراسة" بالمعنى الأكثر مادية وملموسية، بما ينطوي عليه من جهد ومشقة وبحث وتنقيب وإحباط. وتروي الكاتبة عن المشقة التي واجهتها في البحث عن "المادة المتعلقة بيافا" في أرشيف الدولة. فقد بذلت برغر جهداً كبيراً في البحث عن مستندات ووثائق المحاكم الشرعية التي كانت كلها مفقودة، واصفة عملية البحث والتحري التي قامت بها بإسهاب وتفصيل. وقد استند جانب من عملية البحث هذه إلى مقابلات أجرتها مع الأشخاص الذين كان من المفترض أن تكون هذه المواد (الوثائق) في حوزتهم، فيما استند جانب آخر إلى وثائق تتحدث عما آلت إليه وثائق أخرى. وهناك أيضاً ذرائع وحجج تذرع بها أولئك الذين كان من المفترض بهم أن يكونوا مؤتمنين على الذاكرة، لكنهم خانوا مهمتهم. التمييز التقليدي بين الوثائق وبين الواقع الذي يبدو هنا بمثابة نظارات (عدسات) مكسورة، وربما مقلوبة، يتمثل في أن الوثائق ذاتها هي بمنزلة الواقع الذي يجري بحثه، فيما تبدو عملية البحث عنها من جانب الباحثة أشبه بالحبكة أو السرد التاريخي للقصة.

ولعل ما يبدو لافتاً للنظر في شكل خاص هو الطريقة التي تكتشف فيها (المؤلفة) سيرة عائلة حناوي. ولم تكن نقطة البداية سهلة حسب قول برغر إذ أن "الأملاك الكثيرة التي تركها أبناء عائلة حناوي في وطنهم عندما خرجوا منه في شتاء ١٩٤٨ – البيارة، البيوت، الأموال، الأرض والوثائق التي تثبت كل شيء – اختفت في الظاهر كلياً أو غيرت وجهها جذرياً" (نفس المصدر ٢٣).

لكنه يمكن العثور على "حناوي" في مكان غير متوقع: في وثائق المؤسسات الصهيونية التي كان أحدى أهدافها بالذات هو محو العرب من الذاكرة.

وتقول برغر " يبدو أن التخليد الصهيوني ناجع ومفيد للغاية ولدرجة أنه منح رعايته حتى لحناوي" (نفس المصدر ص ٢٤).

ثمة هنا مفارقة عجيبة في استخدام الأسماء العربية لغرض رسم وتشكيل الخريطة العبرية: إذ تستخدم الوثائق الصهيونية لاستحضار الوجود العربي. وتبين برغر أيضاً كيف يمكن الاعتماد

على وثائق أصحاب القوة بغية استخراج قصة معدومي القوة.

إن خروج برغر عن النموذج الوضعي الذي يستخدمه المؤرخون الإسرائيليون يشكل إعلاناً واعترافاً واعياً بالصعوبة الكامنة في الكتابة التأريخية عن المغلوبين. بيد أن الخطة النظرية والمنهجية للتمرد على المنهجية الوضعية تتصادم مع الخطة السياسية الرامية لإسماع صوت المقموعين. هذا الأمر يبدو مفاجئاً في الظاهر، ذلك لأن الرؤية الوضعية مرتبطة بالنظام الاجتماعي القائم، وبالتالي يمكن الافتراض أن تغيير أحدهما مرهون بتغيير الآخر. ولكن في الوضع الذي تكون فيه الرؤية الوضعية هي الخطاب المهيمن في المجتمع، فإنه لايمكن للادعاء بشأن الغبن والتمييز أن يكون ذا قوة وتأثير سوى عندما يُسمع في إطار هذا الخطاب. ويفسر الادعاء بشأن تعدد الروايات وأزمة التمثيل، بالنضال السياسي من أجل المغبونين وهو بذلك يلحق الهزيمة بنفسه إذ أنه يتيح إقصاء الروايات المنافسة إلى الهوامش.

إن منح صوت للمقهورين يمكن أن يفسر كبديل غير مكلف لتغيير بنيوي في علاقات القوة وتوزيع الموارد. فمن الصعب رفع الرايتين، المنهجية والسياسية، معاً وفي آنٍ واحد.

وتوفر الوضعية، كمنظومة مبادىء وقواعد ملزمة، مظلة مريحة وذات صلاحية للكتابة العلمية. أما التحرر منها فيستوجب من الكاتب التصدي لمشكلة الصلاحية من خلال موقف مكشوف. ربما لهذا السبب لا ينطوي كتاب برغر – وكذلك مؤلفات أنثروبولوجيين وباحثين في الثقافة – على تنازل تام عن الصوت الموثوق لمقدم الكتاب. إن برغر ومن خلال إظهارها لحضورها، إنما تعيد فقط تحديد دورها ومهمتها، وهي بذلك تحطم ولو بشكل جزئي الإدعاء حول الكتابة المحايدة أو الموضوعية.

وتجدر الإشارة أنها هي التي تختار وتحكم في شأن أي من المكبوتين سيحظى بصوت وأي قائمة ستدخل إلى الأرشيف الذي تقوم بجمعه. ويمكن القول أنه في هذا النوع من الكتابة – الكتابة ذات الإدعاء الأخلاقي بتحرير ماضي المكبوتين – تزداد وتتعزز صلاحية الصوت الراوي وتتحول إلى مكون لاغنى عنه في عملية إسماع القصة في حد ذاتها.

وبغية تمكين المكبوتين وسائر الذين يعنيهم الأمر، لا بد من تعظيم الوسيلة التي يلجأون إليها، أي صوت المؤلفة[١٠]. وقد عادت برغر في نهاية المطاف إلى الوضعية، ولكن من خلال توجيه النقد إلى دور ووظيفة المنهج الوضعي ذاته في تأسيس وتشكيل علاقات القوة.

الديزنغوف سنتر اليوم

٣- العصرنة والصراع اليهودي - العربي:

يُعتبر كتاب برغر "ما بعد صهيوني" وذلك بموجب التعريفات المتبعة لماهية ومضامين التاريخ ما بعد الصهيوني. فتكريس الجزء الأول من الكتاب – ثلث حجمه – لوصف الماضي العربي للمجال أو الحيز موضع البحث يعد بمثابة "ضربة" في الصميم للرواية الصهيونية التقليدية.

ولا يمكن للقارىء تجاهل أن الحديث لا يدور عن بلاد فارغة وأن الوجود اليهودي، حتى في "المدينة العبرية الأولى"، التي شُيِّدت حسب الرواية الصهيونية فوق كثبان رملية، يقوم على السلب و النهب. علاوة على ذلك يحتوي الكتاب ذاته على حضور وماض ومستقبل ونبض إنساني للمسلوبين. وفيه أيضاً يظهر المغتصبون ("المستعمرون") بالذات كأناس مجهولين: موظفين محيت هويتهم، وغاصبين نَهّابين لا يتم الإمساك بهم أو القبض عليهم – لا من قبل الشرطة ولا من قبل المؤرخة – بل يختفون مع ما سلبوه.

ولعل النقطة التي تبدو أكثر أهمية هي أن العرب يظلون مشدودين إلى المكان حتى بعد رحيلهم عنه، فيما الكاتبة (برغر) ترافقهم في منفاهم وتستمر في سرد قصتهم ولئن كان ذلك دون تفصيل كبير. في الهستوريوغرافيا الإسرائيلية، التي لا تسهب أصلاً في سرد سيرة الفلسطينيين منذ اللحظة التي فقدوا فيها حضورهم المادي – الجسدي – في البلاد، يفقد هؤلاء الفلسطينيون أيضاً حضورهم في الرواية[١١].

الفصول الأقوى في الكتاب تتناول طرد العرب من يافا وما رافق ذلك من أعمال سلب ونهب. في مقطع مؤثر ومثير تقتبس برغر أقوال مردخاي شتنر، حارس أملاك الغائبين، والتي كتبت في العام ١٩٥٢:

يقول باحثون نقديون إن الهستوريوغرافيا الصهيونية المأسسة كان لها هدف قومي واضح. فعلى ما يقوله باروخ كمرلنغ (١٩٩٧، ص ٢٦٢): الانطباع هو أنه ولغاية السنوات الأخيرة كان المحور الذي دار حوله معظم البحث الهستوريوغرافي الإسرائيلي – اليهودي، في جميع المواضيع المتصلة باليهودية، القومية اليهودية، الاستيطان اليهودي في البلاد وبناء المجتمع والدولة ومؤسساتها وحروبها، هو محور تسويغ الصهيونية ... ومن هذه الناحية كانت الهستوريوغرافيا جزءاً من الهيمنة الثقافية – السياسية ... التي أقيمت هنا، والتي أخذت تشهد في السنوات الأخيرة فقط ظهور تصدعات فيها.

علينا أن نحول المدن المهجورة إلى مدن عصرية متطورة، وهذا باستطاعتنا عمله فقط إذا قمنا بتشييد مبانٍ عصرية في جميع الأراضي والمناطق الخالية في نطاق هذه المدن. هذه الأماكن ستكتسب بمرور الوقت طابعاً مشابهاً للمدن التي شيدت على يد مجتمع الييشوف اليهودي في البلاد. أجزاء معينة، مثل البلدة القديمة في عكا وجزء من البلدة القديمة في يافا وغيرها، ستبقى على وضعها الحالي وستكون بمنزلة متحف حي في الدولة (نفس المصدر، ص٦٢).

وتظهر قراءة الكتاب أن برغر تعتقد أن المأساة لا تتمثل فقط في السلب والنهب وتحويل المدن القديمة إلى متاحف (!!)، وإنما أيضاً في إنشاء مدن ومبانٍ عصرية متطورة. هنا يكمن تجديد مهم من قبل برغر بالمقارنة مع معظم الأبحاث النقدية الأخرى.

يقول باحثون نقديون إن الهستوريوغرافيا الصهيونية المأسسة كان لها هدف قومي واضح. فعلى ما يقوله باروخ كمرلنغ (١٩٩٧، ص ٢٦٢): الانطباع هو أنه ولغاية السنوات الأخيرة كان المحور الذي دار حوله معظم البحث الهستوريوغرافي الإسرائيلي – اليهودي، في جميع المواضيع المتصلة باليهودية، القومية اليهودية، الاستيطان اليهودي في البلاد وبناء المجتمع والدولة ومؤسساتها وحروبها، هو محور تسويغ الصهيونية ... ومن هذه الناحية كانت الهستوريوغرافيا جزءاً من الهيمنة الثقافية – السياسية ... التي أقيمت هنا، والتي أخذت تشهد في السنوات الأخيرة فقط ظهور تصدعات فيها.

أما الموتيف السائد في الهستوريوغرافيا الصهيونية فهو قصة الانتقال من الفكرة (الحلم) إلى التجسيد (التحقيق)، والتي بدت أحياناً قصة ناجحة وأحياناً أخرى مخيبة للآمال. وقد شهدت هذه الرواية تعزيزاً وتدعيماً من قبل كبار المؤرخين الصهيونيين قبل قيام الدولة، كما أنها تتجلى بطرق مختلفة في سياق التطرق لتاريخ إسرائيل منذ قيام الدولة[١٢].

علماء اجتماع انتقاديون لفتوا الأنظار إلى شخصيات مركزية في المؤسسة الأكاديمية، مثل بن–تسيون دينور و ش.ن آيزنشتات، اللذين جندا حسب قولهم الأكاديمية وربطوها بالنشاط الصهيوني (رام ١٩٩٣؛ ١٩٩٦؛ Kimmeling ١٩٩٢). هؤلاء الأكاديميون حولوا، عن طريق الرواية التاريخية، القومية اليهودية إلى مسألة جلية وواضحة تلقائياً وبذلك ساهموا في خدمة ودفع أهدافها.

وقد ربطت وجهة النظر الصهيونية بين التضاد عصري/ تقليدي والتضاد يهودي/ عربي (ومن هنا تنبع أيضاً انعكاسات فيما يتعلق بتضاد إشكنازي/ شرقي). فاليهودي يمثل التقدم المُقدَّر له أن يحل بصورة حتمية، وهو يمثل لهذا الغرض الغرب في الشرق. أما العربي القاطن في البلاد فيمثل التخلف والجهل، وهو لهذا الغرض يمثل الشرق. بعبارة أخرى، قامت الصهيونية بنسخ مشروع التمدن والعصرنة الأوروبي لتضعه بما ينطوي عليه من فرضيات أساسية استشراقية في سياق صراع قومي[١٣].

في هذا السياق يجدر تفحص ألبومات تقارن بين البلاد في الوقت الحالي وبين ما كانت عليه في الماضي، وهي ألبومات تولى إعدادها وتحريرها باحثون من المؤسسة الأكاديمية.

بنيامين زئيف كيدار (١٩٩٢) قارن بين صور جوية التقطت في فترة الحرب العالمية الأولى وصور جوية لنفس الأماكن في الفترة الحالية، وقارن عميرام غونين (١٩٩٨) بين صور قديمة وأخرى حديثة. الإنثروبولوج داني رابينوفيتش (Rabiniwitz ١٩٩٤) علّق على كتاب كيدار بقوله أن إدعاءه (أي الكتاب) الحياد العلمي يغطي على كونه سلعة أيديولوجية قومية محضة. وأشار رابينوفيتش إلى أن المقارنة أو المقابلة بين الصور الملتقطة في الفترتين تهدف إلى تأكيد وإبراز التحولات المرتبطة بالنموذج (المثال) الصهيوني وكذا البدائية التي تتحول إلى عصرية والبلاد الخالية

الجرداء التي أخذت تمتلىء بالمستوطنات والبلدات المزدهرة.

يمكن الإشـارة أيضـاً إلـى أن الانتقال من التصوير بالأبيض والأسود إلى التصوير الملون يشكل تشبيهاً على التقدم الذي جلبه الاستيطان اليهودي إلى البلاد. من جهته أضاف رابينوفيتش بقوله أن القدرة في حد ذاتها على إنتاج ألبوم صور من هذا النوع تستوجب إمكانية التحليق في سماء البلاد، وهي إمكانية ليست متاحة على الإطلاق لمن لا ينتمي للمجموعة المهيمنة في أوساط السكان.

وتطرق رابينوفيتش إلى الموتيف الصهيوني المعروف المتعلق بـ "إحياء القفار" مبيناً أن الزمن الصهيوني ليس محايداً وإنما يسير باتجاه التقدم. لهذا السبب تُقدَّم عملية التشكل والبناء الصهيونية كعملية مفضلة في أخلاقيتها التاريخية على ما وصف كتخلف عربي.

في نقد مشابه لكتاب عميرام غونين، كتب أبنير بن عاموس (١٩٩٨):

يبدو أن النقيض الوحيد لألبومات من نوع ألبومات غونين و كيدار سيكون ألبوماً آخر يخصص للقرى العربية التي كانت قائمة في إسرائيل حتى العام ١٩٤٨، إلاّ أنها مُحيت بعد الحرب.

في هذه الحالة ستنقلب العملية رأساً على عقب: إذ سيُوصف الماضي على أنه متشكل ومبني ومزدهر، أما في الحاضر فسوف نجد فقط حقولاً جرداء قاحلة. بناء على ذلك، سيتضح أن العصرنة ليس فقط لا تحمل على جناحيها البناء والتعمير والإنتاج، بل وتحمل أيضاً الدمار والخراب[١٤].

أقوال بن عاموس الآنفة تربط بين القومي والعصري: فهدم وتدمير أساس وجود الأمة المنافسة هو نفس الهدم والتدمير الذي يجلبه التقدم. برغر أيضاً لا تظهر انبهاراً بالتقدم الذي تدعي الصهيونية جلبه، و بتجسيد المشروع القومي أو بعملية العصرنة، كما تعبر هذه الأمور عن نفسها في إحدى المعالم أو الهياكل الفخمة التي شيدتها الصهيونية – ديزنغوف سنتر – والذي تحرت برغر عملية إقامته. فالمركز ("سنتر") ليس له أفضلية أخلاقية وقيمية على كَرْم – بستان – الحناوي حسب كتاب برغر الذي يعبر عن درجة من الحنين (النوستالغيا) للطيبة والبساطة لدى صاحب الشقة العربي ولدى السكان اليهود في حي نورديه. فالنظام الجديد يُدَمِّرُ القديم ويُشيِّد على أنقاضه. التقدم الصهيوني، كأي تقدم آخر، مرتبط بشكل لا ينفصم بعملية هدمية، ولهذا السبب فإن الازدواجية القيمية تكمن فيه بحكم طبيعة صيرورته.

ديزنغوف سنتر من الداخل

وتعود برغر، بشكل مناقض وانتقادي، إلى عدد من الفرضيات الأساسية للصهيونية التقليدية. فالعربي بالنسبة لها أيضاً، يمثل القديم والأصيل، وإن كانت تعي جيداً أن العربي الذي تصفه بُنِيَّ على أنقاض عرب سابقين في ذات الحيز (المكان). والقديم لدى برغر ليس سلبياً، وهي تتطرق إليه بنبرة تنم عن نوستالغيا، والتقدم ليس قيمة إيجابية وإنما هو عملية ديالكتيكية تحتوي البناء والهدم.

وفي الوقت الذي يؤكد فيه الباحثون النقديون أن الصهيونية لا تجلب فقط التقدم وإحياء القفار، وإنما هي أيضاً جزء من مشروع كولونيالي احتلالي ذي فرضيات أساسية إستشراقية، فإن سلوك برغر يبدو معاكساً، فهي تعيد أو تعزو الصراع القومي إلى خطاب العصرنة والحداثة. فـ "حناوي" ليس عربياً "فقط"، وإنما هو يمثل أيضاً عالماً تقليدياً آيلاً إلى الزوال، وهو يُثير اهتمام برغر لهذا السبب بالذات. من هنا تؤكد برغر أن الصراع ليس فقط – وربما أيضاً ليس في الأساس – صراعاً قومياً، فهو يقبع بالدرجة الأولى داخل الإطار المُقيِّد لعملية العصرنة الكونية. وفي حالة حناوي فإن التضاد هو بين العرب واليهود، حيث يمثل الأوائل الماضي فيما يمثل الأخيرون (اليهود) المستقبل.

هذا العرض يُشبه بدرجة كبيرة الهستوريوغرافيا الصهيونية، إلاّ أن هذا التشابه لا يعدو كونه سطحياً. فالمحك يتجلى في نقطة الإنكار التالية: عندما يصبح العرب مبعدين من الصورة، حيث يستبدل الصراع اليهودي – العربي وتنتقل الرواية للانشغال باليهود

فأشجار الجميز تذكر هنا بالماضي "الطبيعي"، الأصيل للمكان، وعليه فهي لا تستطيع الاندماج في واقع ما بعد الحداثة لـ "المركز" المعاصر، ذلك لأنها تسعى إلى تقويض منطقه: "أشجار الجميز بالمناسبة مزروعة في وسط شارع الملك جورج المزدحم، وهي، تنتصب هنا كمعضلة مرورية أكثر من كونها تذكيراً فاجعاً ومؤلماً بالطبيعة التي أميتت ودفنت تحت هذا المكان" (نفس المصدر ص٣٥).

وفي الوقت الذي يغادر فيه تحليل تشكيل المكان خطاب الصراع ويقفل عائداً إلى خطاب العصرنة، خطاب الطبيعة مقابل الحضارة، فإن مغزى التأرخة التقويضية يتغير: فالماضي لا يمنح حقوقاً وإنما يبقى ماثلاً في الحيز كإزعاج وكتذكار دائم للطريق الذي جرى التخلي عنه.

الإشكنازيين وحدهم. ويتحول الصراع ليصبح بين رأسمالي يهودي – إشكنازي ثري وبين سكان حي يهودي – إشكنازي فقير. إذن في رواية برغر، تواصل سيرورات البناء عملها دون توقف، بينما الصراع القومي يظهر أحياناً ويتوارى أحياناً أخرى.

الضحية التي تأسف له برغر (١٩٩٨) لا يتمثل دائماً في الإنسان، أحياناً تكون هذه الضحية هي الطبيعة والإنسان العربي هو جزء لا يتجزأ منها. هذه الرؤية لا تختلف كثيراً عن النزعة الإستشراقية الصهيونية الكلاسيكية، وهي ترتبط بالرمز النوستلجي لتل أبيب القديمة والعبرية، "حديقة الجميز" التي اختفت:

ذلك البستان الذي فلحه مزارعو حناوي المساكين البؤساء، بات مدفوناً تحت الأقنعة والمظلات الملتوية لـ "ديزنغوف سنتر" بطوابقه الأرضية الثلاثة وتخشيبات أهالي نورديه. بعبارة أخرى: لقد دفنت الطبيعة دفناً حقيقياً و رمزياً ومحزناً جداً تحت الأسمنت وألواح الخشب في هذا المكان الحضري الأخير. إذا أضفنا لذلك أشجار الجميز، المنتصبة إلى الجنوب قليلاً بإتجاه يافا، وهي من البقايا الأخيرة لحقول وبساتين الجميز التي كانت تزين البلاد، تلك الأشجار التي تفوح بعبق القدم، فسوف تبدو الصورة أكثر تشوهاً وتكدراً (نفس المصدر ص٣٤).

فأشجار الجميز تذكر هنا بالماضي "الطبيعي"، الأصيل للمكان، وعليه فهي لا تستطيع الاندماج في واقع ما بعد الحداثة لـ "المركز" المعاصر، ذلك لأنها تسعى إلى تقويض منطقه: "أشجار الجميز بالمناسبة مزروعة في وسط شارع الملك جورج المزدحم، وهي، تنتصب هنا كمعضلة مرورية أكثر من كونها تذكيراً فاجعاً ومؤلماً بالطبيعة التي أميتت ودفنت تحت هذا المكان" (نفس المصدر ص٣٥).

وفي الوقت الذي يغادر فيه تحليل تشكيل المكان خطاب الصراع ويقفل عائداً إلى خطاب العصرنة، خطاب الطبيعة مقابل الحضارة، فإن مغزى التأرخة التقويضية يتغير: فالماضي لا يمنح حقوقاً وإنما يبقى ماثلاً في الحيز كإزعاج وكتذكار دائم للطريق الذي جرى التخلي عنه.

يعتبر كتاب برغر بهذا المعنى، كتاباً ما بعد صهيوني، وربما أيضاً "بوست – بوست صهيوني". فالصراع على الرواية الصحيحة وكثرة الروايات وحول مسألة العدالة والمسؤولية التاريخية في الصراع، لا يشكل الأمر الأساسي الذي يشغل ويثير اهتمام المؤلفة. فاليهود والعرب من وجهة نظرها شركاء في كونهم ضحايا لشيء أكبر منهم، وحتى أكبر من المهندس المعماري آرييه فيلتس الذي خطط وصمم المَعْلَم (ديزنغوف سنتر) الذي يمثل ظاهرياً انتصاراً أخيراً وتاماً للتقدم الصهيوني.

٤-الضحايا/ غير الضحايا اليهود والعرب للصهيونية:

تفضي عملية إعادة تعريف الرواية أيضاً إلى اختيار جديد لأبطال القصة. الأبطال الرئيسيون في التأرخة الصهيونية هم الزعماء والمجموعات الاجتماعية، الذين "صنعوا تاريخاً". في السنوات الأخيرة إنتقل التوكيد لينصب على ضحايا الصهيونية، أولاً العرب ومن ثم اليهود[١٥].

وتصف برغر في مقدمة كتابها كيف وقع حناوي وأبناء عائلته ضحية، سواء من ناحية التاريخ أو من ناحية التأرخة: "في منتصف إجازة صيف العام ١٩٤٦، وفي يوم الإنفجار الذي وقع في فندق الملك داوود في القدس، تعرض داود حناوي لكسر في الساق. فبينما كان يركب الدراجة الهوائية الجديدة، العائدة لشقيقه الأكبر يوسف ويسير مسرعاً في منحدر إحدى التلال انقلبت به الدراجة بعدما فقد السيطرة عليها في أحد المنعطفات مما أدى لإصابته بكسور

وتصف برغر (نفس المصدر ٣٦) المهزلة الكامنة في وضع حناوي:
"أرض حناوي"، هكذا تسمى قطعة الأرض التي يملكها في الوثائق الرسمية والخرائط. أرض وليس عقار. هكذا ودون قصد ألحق حناوي بالعالم الصهيوني عبر عالم المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، حتى في هذا السياق والذي يقف – ظاهرياً على الأقل، حسبما يتراءى للوهلة الأولى - في هذا الجانب من المتراس، وليس في جانب الذين تُسلب ("تُخلَّص") الأراضي من أيديهم.
سكان نورديه الذين تم اخلاؤهم من الحي يحتلون دور المسلوبين والمطرودين العرب، أو الدور المخصص في الأبحاث النقدية للشرقيين بالذات.

بالغة في ساقه اليسرى، ولا زال يعرج حتى اليوم جراء الحادث" (نفس المصدر ص٩). هذا النص يشير حقاً إلى الانفجار الشهير الذي وقع في فندق الملك داود بالقدس والذي صار ذا دلالة تاريخية عميقة (وبالقطع بالنسبة لحناوي ذاته أيضاً)، لكن الحدث الذي تتحدث عنه برغر هنا، والذي ما زال داود يحمل نتائجه وآثاره حتى اليوم، حدث له في ذات الوقت وهو حدث خاص جداً. وداود في هذا الحادث الافتتاحي، هو ضحية للحادث وليس ضحية للصهيونية. ففي الوقت الذي يشكل فيه الملك داوود، الذي سمي الفندق على اسمه، جزءاً من التاريخ الحقيقي، فإن لشريكه في التسمية أيضاً، داود حناوي، تاريخ خاص جداً.

أبطال الكتاب يأخذون هنا أحياناً قصة حياة لم يكن من المفترض أن تكون عائدة لهم. فحناوي القتيل يوضع في موته في موقع أو موضع لا يمكنه أن يمسك به، موضع يهودي ضحية لـ "الأحداث".

وتصف برغر (نفس المصدر ٣٦) المهزلة الكامنة في وضع حناوي:

"أرض حناوي"، هكذا تسمى قطعة الأرض التي يملكها في الوثائق الرسمية والخرائط. أرض وليس عقار. هكذا ودون قصد ألحق حناوي بالعالم الصهيوني عبر عالم المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، حتى في هذا السياق والذي يقف – ظاهرياً على الأقل، حسبما يتراءى للوهلة الأولى – في هذا الجانب من المتراس، وليس في جانب الذين تُسلب ("تُخلَّص") الأراضي من أيديهم[١٦].

سكان نورديه الذين تم اخلاؤهم من الحي يحتلون دور المسلوبين والمطرودين العرب، أو الدور المخصص في الأبحاث النقدية للشرقيين بالذات.

في كتاب "بيغمليون" لجورج برنارد شو، يشكو أب ليزا دوليتال من أنه وبسبب سكره وإدمانه على الخمرة صار فقيراً لا يستحق الشفقة (undeserving poor) وكمال حناوي الذي سبقهم، لا يثيرون اهتماماً بـ "آخريتهم"، إذ لا يمكن استغلال قصتهم المحزنة من أجل دفع هدف قومي أو إثني[١٧].

هذه الازدواجية، المتمثلة في أناس ليسوا أبطالاً وليسوا خونة ولا يمثلون الهيمنة لكنهم أيضاً لا يمثلون الآخر، لا تتسق ولا تتلاءم مع التأرخة الصهيونية التبريرية ولا مع التأرخة المناهضة للصهيونية أو ما بعد الصهيونية. فهي تلعب في ساحة مختلفة تماماً، نموذج المقارنة الملائم فيها هو شوارع باريس حسبما وصفها فولتير بنيامين (١٩٩٢).

إن تأثير التقدم، الذي يمارس عملية هدم وإعادة بناء شاملة، أقوى من تأثير الصراع اليهودي – العربي، الذي يندمج في عملية التقدم ذاتها ويتحول إلى واحدة من ركائزها. وتعثر برغر على مجالات للوجود والحياة في المسافات التي يتيحها الخطاب السائد في تكوين أمة وإدارة صراع قومي. وقد أشار باحثون انتقاديون إلى تعيين حدود المجموعة باعتباره إحدى الوسائل التي جندت التأرخة الإسرائيلية نفسها بواسطتها لصالح المشروع الصهيوني. وعلى سبيل المثال فقد أدى إخراج العرب من الرواية، أو دحرهم إلى فصل في نهاية القصة تحت عنوان "أقليات"، إلى إقصائهم كلياً من التأرخة الإسرائيلية أو وضعهم في هامشها[١٨]. برغر تخطو خطوة أخرى كتحصيل حاصل لتركيز اهتمامها على المجال وليس على مجموعة أو فكرة. فهي تفكك مفهوم المجموعة القومية ذاته وتجعل من جميع مواضيع بحثها محليين من أبناء المكان من جهة، وغرباء أيضاً من جهة أخرى. فعندما لا يكون هناك "تاريخ صهيوني" أو "تاريخ للصراع" وإنما فقط نظرة موجهة صوب ما يحدث في كيلومتر مربع معين، فإن الانتماء القومي يتفكك أيضاً. حيث يتحول أبناء جميع القوميات إلى غرباء عن المجال بنفس الدرجة، سواء أكانوا من العاملين في بستان حناوي أو سكاناً في حي يهودي، وبالقطع أولئك الذين ينعتون صراحة بـ "عمال أجانب".

وتعتبر رواية برغر تقويضية بكونها تخرج اليهودي والعربي على حد سواء من الصراع القومي، الذي من المفترض أنه سيمنحهما ظاهرياً، معنى حياتهما، ثم تعيد لهما ماضيهما الخاص (والذي هو أيضاً جماعي بطبيعة الحال). فالعرب الذين كانوا مرتبطين بمنطقة البستان لم يمثلوا صراعاً أوسع، والمهاجرون الذين استوطنوا في حي نورديه لم يكونوا طلائعيين صهيونيين وبالتالي فإن قصتهم ليست قصة تجسيد الحلم الصهيوني. المغزى الحقيقي لـ "ما بعد الصهيونية" يعبر عن نفسه هنا في كون المجال (المكان) الذي هو بطل القصة، مُعرَّف ومحدد من قبل سكانه المؤقتين وبواسطة الطريقة التي تستخدم فيها الأرض فعلياً، وليس بواسطة رواية قومية معينة. فالمكان لم يكن "منتمياً" أو "عائداً" لأحد، ومن هنا فإنه غير "مُهَوَّد"، وبالتالي فإن أية محاولة تنسب له تجسيد فكرة أو حلم إنما هي محاولة محكومة بالفشل.

غالبية الباحثين، الانتقاديين والمؤسسيين على حد سواء، تفضل الاستمرار في تحليل السياسة والمجتمع وسط التطرق إلى الرواية القومية.

ويميل الفريقان إلى اختيار أبطال تمثيليين يقفون في بؤرة الإشكالية المثيرة لاهتمام الباحث[١٩].

لهذا السبب نجد نقاشاً وبحثاً غنياً نسبياً حول الطلائعيين و "الصبرا" ومجموعات قائدة، وانشغالاً بأولئك الذين يعتبر غُبنهم مبدئياً ونابعاً من طبيعة المشروع الصهيوني: العرب، المهاجرون الجدد، الشرقيون والنساء. في المقابل تسلط برغر الاهتمام على الشخصيات الواقعة بين الفئات ولهذا السبب فهي غير قابلة لتعريف جازم ودقيق بمصطلحات الروايات المتنفذة. تتحرك هذه الشخصيات بين الإمكانيات التي يتيحها لها وجودها الاجتماعي، ولذلك فإنه يجب البحث عن هذه الشخصيات بالذات. فالشخصيات الوسيطة الهجينة أو المركبة، والتي تتواجد على هامش الخطاب العام تلقي بضوئها على هذا الخطاب ربما أكثر من الشخصيات المركزية، كالزعماء والمغبونين وغيرهم، والتي "يحنطها" الخطاب القومي ويجعل منها شخصيات أحادية البعد. النظام الاجتماعي منكفئ بدرجة كبيرة على نفسه، فيما تبدو المقولات الموجهه له طبيعية وواضحة تلقائياً.

الإنثروبولوجيون الذين يقتضي منهم دورهم تفسير مجتمع يتكون بأكمله من آخرين (من وجهة نظر الأوائل) يدركون منذ وقت طويل أهمية الشخصيات التي تكسر المقولات الثقافية كوسيلة بالذات لفهم منظومة المقولات والمفاهيم[٢٠]. ولأسباب شتى فإن الشخصيات الهجينة المتواجدة على الهامش، لها أهمية أيضاً في خطاب ما بعد الحداثة، ولذلك فإنها تقف عملياً في جوهر فكرة ما بعد الحداثة.

في المقابل، فإن تحليل الصهيونية ودولة إسرائيل والصراع اليهودي – العربي يتميز بالذات بالتركيز على الشخصيات الحاسمة المنتمية إلى طرف محدد في أحد الصراعات والتصدعات التي تسم المجتمع. وتتناول برغر الشخصيات الهجينة كنتاج حتمي لإختيارها تحليل المجال على إختلاف المشمولين فيه. وفي ضوء التحول المعرفي الذي تشهده علوم الماضي، فإن بالإمكان أيضاً مطالبة التأرخة الإسرائيلية بأن تبدأ بالاهتمام بمثل هذه الشخصيات[٢١].

٥-تل ديزنغوف وإنقاذ المجال من المكان:

لقد انشغلت حتى الآن بمسألة الرواية الصهيونية الحديثة فيما يتعلق بالصراع اليهودي – العربي وبدرجة الالتزام المطلوبة من الباحث بغية تفسير الواقع من خلال هذه الأطر بالذات. ويطرح كتاب برغر مسألة أخرى وهي: النمط السردي لرواية التاريخ. إحدى السمات الأساسية لتوجه ما بعد الحداثة تتمثل في معارضة كل أنواع الروايات الفوقية. برغر لا تسير في هذه السكة حتى النهاية، بيد أن كتابها يشكل محاولة أولية وثورية، في السياق الإسرائيلي، نحو تبني نموذج علم الآثار في السرد التاريخي، والذي أسس له توجه ميشيل فوكو (Foucault ١٩٧٢؛ ١٩٨٠). غير أن رؤية برغر تختلف عن رؤية فوكو. فعلم الآثار، من وجهة نظر فوكو، يتحرى الظروف التي تتشكل فيها الذات كموضوع معرفي، بينما علم الآثار لدى برغر أكثر ملموسية، ولعل ذلك بتأثير مكانة علم الآثار في إسرائيل وبسبب حقيقة أن مصطلح "تل أثري" سهل ودارج لدى الجمهور الإسرائيلي. ويحول السياق الإسرائيلي الإستعارة إلى شيء مثير بشكل خاص، فـ "ديزنغوف سنتر" مطروح أيضاً كتل أثري يختزن تحت الطبقة العليا والسطحية طبقات عديدة من الماضي والتي يتعين على الباحث اكتشافها وبالتالي إنقاذها. هذا الإنقاذ سيكون دوماً إنقاذاً جزئياً بحكم شظايا فسيفساء الخزف التي تشكل المادة الخام لهذا التاريخ. كما وتدل استعارة تعبير "تل" أيضاً على فهم كرونولوجي – طوبائي للتاريخ: فتحت التل تتواجد معاً جميع الأزمنة في حاضر أزلي. لذا فإن الكتاب يقترن مرة أخرى بموتيف ما بعد حداثي معروف وهو إهمال

وعندما يُصبح تل ديزنغوف أو التل الذي هو أساساً "تل أبيب" هو الموضوع أو المنطلق المركزي، فإن المجال يغدو البطل الرئيسي الذي يتحرر من قبضة التاريخ. فالمجال سابق للزمن الذي حوله إلى "مكان". في كتاب برغر يظهر المجال فارغاً بالمعنى الرمزي للكلمة: حيث تجري الأمور وتتراكم عليه وفوقه وسط توليفة لا معنى لها أحياناً، لكنه يبقى هو ذاته، مجالاً حيادياً، غير محدد أو غير مُنتم لأي من محتليه أو أي من المطرودين منه. فالمجال هنا صفحة بيضاء يكتب التاريخ عليها. ويظهر الأمر بوضوح أشد عندما تصف برغر (١٩٨٨، ص٧٩) ماضياً لم يدخل إلى كتب التاريخ هكذا كان المجال قبل أن يحاولوا تحويله إلى مكان يشكله تحليله الجيو-مورفولوجي

التواصل الزمني المستقيم لصالح مقاطع قائمة أو موجودة في الوقت ذاته.

تواجد جميع الأماكن معاً في "التل" تحول الأخير، استناداً إلى فوكو (٢٠٠٣) إلى مكان مختلف (هيتروتوبيا). ويطرح نموذج تل أبيب تاريخاً متصلاً وواضحاً. أما "التل" عديم النظام الذي تكتشفه برغر فينطوي على روايات مختلفة، متناقضة ومتصادمة، تولد معاً توليفات أو تداعيات غريبة. فـ "التل" ليس مكاناً محدداً في حد ذاته أو ذا قصة واضحة، وإنما يتبدى في صورة قطار أو مطار أو مقبرة، على غرار النموذج المعروف لـ "فوكو". وتحويل المكان الـ "تل أبيبي" إلى هيتروتوبيا، ليست الصهيونية فيها سوى إحدى الروايات التي تقطع المجال، وهي أيضاً إحدى العمليات الأكثر تقويضية التي تقوم بها برغر. فهي لا تكتب تاريخ المكان وإنما تتفحص أرخيولوجيا المجال من خلال حطام ذكريات وبقايا وثائق وقصاصات صحف. هذا المجال الذي يدخل إليه أناس وأبطال وسيرورات تاريخية ويخرجون منه تاركين فيه بقاياهم. وحيث أن المركز هو المجال وليس العمليات الكبرى التي شكلت معانيه وأبعاده، فقد نشأت رواية مبعثرة غير مترابطة تحل فيها قصة تاريخية مكان أخرى دون علاقة سببية واضحة".

وتتحدث برغر عن ثلاث فترات يمكن النظر إليها أو اعتبارها ثلاث طبقات للتلة التي يستمر التاريخ في مراكمة وتكويم أنقاضه فوق قمتها. ظاهرياً يمكن تصور نموذج ديالكتيكي، هيغلي أو ماركسي، تؤدي فيه تناقضات إحدى الفترات إلى القضاء على هذه التناقضات ذاتها مؤذنة بحلول الفترة المقبلة. لكن هذا السرد الحداثي لا وجود له في الكتاب. ففي كل فترة تنشأ منظومة اجتماعية ذات علاقات قوة واستغلال ومنطق تكويني خاص بها، لا ينبثق عن منطق المنظومة أو الفترة السابقة لها، حيث تظهر أنماط سيطرة ومبادىء حركة في المجال وحتى ثقافة محلية. أما العلاقة بين الفترات فهي، إن وجدت، إنما تكون علاقة عابرة أو تظهر مصادفة، فالذي ينتمي إلى فترة متأخرة يتذكر بشكل ضبابي ما حدث في فترة سابقة لم يعد لها من أثر أو وجود.

استعارة "التلة" تنطوي حسبما أرى على التوجه النقدي العميق للكتاب. والسؤال: هل يمكن لأية نقطة في البلاد أن تكون مجالاً في حد ذاته، دون أن تكون "مكاناً" أو بقعة جغرافية؟

في كتابه "رواية روسية" (١٩٨٨) ألمح مئير شيلو إلى إنعدام إمكانية التفكير لدينا بالمجالات بمعزل عن سياقاتها وإرتباطاتها التاريخية. ويصف شيلو إكتشاف كهف عاش فيه الإنسان القديم متسائلاً عن وعي الإنسان الذي عاش في البلاد قبل أن يوعد بها هذا الشعب أو ذاك ...

مدرس في إحدى القرى (المستوطنات) التعاونية عبر عن سخريته إزاء قِصَرِ ذاكرة أبناء قريته "الطلائعيين" الذين يبدأ تاريخهم بعد قدومهم إلى البلاد فقط ومع ذلك يُخيل لهم أنهم لم يقوموا بتجفيف المستنقعات وحسب بل وأنهم هم الذين قتلوا أيضاً قطيع "الماستودون" [حيوان بائد يشبه الفيل...].

وعندما يُصبح تل ديزنغوف أو التل الذي هو أساساً "تل أبيب" هو الموضوع أو المنطلق المركزي، فإن المجال يغدو البطل الرئيسي الذي يتحرر من قبضة التاريخ. فالمجال سابق للزمن الذي حوله إلى "مكان". في كتاب برغر يظهر المجال فارغاً بالمعنى الرمزي للكلمة: حيث تجري الأمور وتتراكم عليه وفوقه وسط توليفة لا معنى لها أحياناً، لكنه يبقى هو ذاته، مجالاً حيادياً، غير محدد أو غير مُنتم لأي من محتليه أو أي من المطرودين منه. فالمجال هنا صفحة بيضاء يكتب التاريخ عليها. ويظهر الأمر بوضوح أشد

عندما تصف برغر (١٩٨٨، ص٧٩) ماضياً لم يدخل إلى كتب التاريخ هكذا كان المجال قبل أن يحاولوا تحويله إلى مكان يشكله تحليله الجيو–مورفولوجي [مورفولوجيا: علم هيئة الأجناس الحية ووظائفها. في القواعد: علم الصرف] ككيان مستقل عن الناس الذين يعملون ويتحركون عليه. لكن تحليل ماهية الأرض وقدمها يعتبر أيضاً عملية إعطاء أسماء للمكان في إطار ثقافي، داخل حقل القوة العلمي. فهل باستطاعتنا تخيل مجال خالٍ من المعاني؟

الإمكانية النظرية بشأن المجال الخالي من المعنى تطرح السؤال حول اختيار نقاط زمن تاريخية يمكن للرواية أن تبدأ انطلاقاً منها. يقول المؤرخون، وهم محقون في ذلك، أن أية نقطة كهذه هي قائمة بالفعل وأنه يمكن العثور على نقطة سابقة لها. ومع ذلك هناك معنى، من الناحيتين التحليلية و الأخلاقية، لمصطلح "لحظة الصفر"، و هي اللحظة التي تكون فيها ثمة طرق بديلة متاحة أو مفتوحة قبل أن تسدها التطورات التاريخية.

إنه موضوع مثير سبق وأن طرحه ألبير كامو (١٩٩٥) في مؤلفه الأخير الذي نشر بعد وفاته والذي جاء تحت عنوان ذي مغزى "الإنسان الأول".

ففي الجزائر كان بالإمكان المحافظة على هوية مدموجة، هوية الفرنسي و الجزائري، دون أن يكون الإنسان مُحتلاً أو تابعاً، وذلك قبل أن يُلزم التمرد القومي (الثورة الجزائرية) جميع الأفراد باختيار أحد المكونين في هويتهما وقبل أن تفرض عليهم هوية قومية موحدة. يهودا شنهاف (٢٠٠٣) بحث بدوره هذه الإمكانية في السياق الإسرائيلي مثلما يستدل من عنوان كتابه "اليهود – العرب". فقد فتش عن لحظة تاريخية معينة كانت فيها الإمكانية الثقافية لمزاوجة من هذا النوع قائمة، أو كان يمكن تصورها والتفكير بها قبل أن يُشكل المنطق القومي مكوناته الذاتية بشكل جعل هذه المقولات تنفي إحداها الأخرى.

غير أن إمكانية إعادة عجلات التاريخ إلىالوراء غير قائمة وبالتالي وبدلاً من الشَّرْطَة (–) بين اليهود والعرب راح يُشَيَّد ولا زال يُشَيَّد، جدار فاصل.

مع ذلك، وبغية فهم عمليات تاريخية، يجدر معرفة وتقصي الكيفية التي تشكلت فيها مقولات الحاضر، وهنا يتحول مصطلح لحظة الصفر إلى مصطلح ذي أهمية بحثية[٢٣].

رغبة برغر في الوصول إلى الطبقات العميقة للتل تكشف سلسلة من الإمكانيات الهجينة والمنطلقات المتناقضة والتي تعبر عن نفسها في أحيان نادرة، وذلك بالأساس نظراً لأن منطق الصراع القومي يسحقها ويمحوها. ولا داعي أو حاجة، من أجل كشف الإمكانيات الثقافية والتوليفات المثيرة التي كانت ممكنة في نقطة صفر معينة، لكنها لم تبق حتى وقتنا الحالي حتى ولو كإمكانية متخيَّلة، للوصول إلى الفليستوكو – هولاكو أو إلى الماستودون، بل يكفي الوصول إلى الهوية المركبَّة لـحناوي وسكان نورديه.

المكان الغني بالمعاني والدلالات هو لب الكتاب[٢٤]. فالكتاب يفصل اسم المكان عن المجال، وبذلك يقوم بعملية تقويضية لا تقوم بها التأرخة الإسرائيلية، نظراً لأنها تركز على السيرورات المخططة والمنفذة بواسطة أناس يمتلكون وعياً قومياً. فالمكان يمكن أن ينتمي لليهود أو العرب، لمن أتى أولاً أو الذي وُعِدَ بالبلاد، ولكن المجال يقف في كتاب برغر في مقابل المكان، مفصولاً ومعزولاً عنه وغير مكترث أو لا مبالٍ تجاهه. المجال هو الموضوع الذي يصبو إليه الجميع لكنهم لا يستطيعون أبداً تحقيق ملكية كاملة عليه[٢٥]. اختلاف المجال عن المكان، او الموضوع عن عناصره، يمنح خلاصاً لكل أولئك الذين حولوا المجال إلى بيت، لكنه – أي المجال – يقدم مرآة نقدية ساخرة تجاه سائر محتليه الذين أتت على ذكرهم التأرخة (الهستريوغرافيا) القديمة والجديدة.

وفي الوقت الذي يبقى فيه المجال ثابتاً فإن الأماكن – أي الأسماء التي تعطى للمجال – لها تاريخ خاص بها، والذي تنفصل عنه هذه الأماكن أحياناً. وقد كتبت برغر (١٩٩٨، ص٢١): "حيث أن هذه هي بالدرجة الأولى قصة عن بشر – عن بيوتهم و أشيائهم، ذكرياتهم وأحلامهم، غيابهم وحضورهم – فإنها ستروى عن طريق الأسماء ... أسماء طبيعية وأخرى مستعارة، أسماء من هنا ومن هناك، أسماء أعطيت وأسماء سلبت". والأسماء هنا مثبتة في نقاط معينة من المجال من خلال ذاكرة العمال، ولكن هذه النقاط أيضاً ["عوغيوت (كعك) مادلين"] نقاط مؤقتة وعابرة. فالمكان يتبع الإنسان أو المجموعة لسنوات طوال حيثما حل في أنحاء العالم، في حين يتحول المجال لإكتساب معانٍ ودلالات جديدة.

فَكَرْم (بستان) حناوي مثلاً موجود في مكان ما من العالم، في ذاكرة أبناء العائلة أو في وثائق قديمة، وبالتالي يمكن أن يعود ويُطالب بحقه وملكيته للمجال. هنا إحتاجت برغر إلى استخدام نص مبالغة تخرج فيه عن المجال المقلص الذي تكتب عنه: كَرْم الحناوي لا يزال قائماً، غير أنه يجب الانفصال عن المجال بغية العثور عليه (اي الكَرْم)، أما "ديزنغوف سنتر" فقد كان قائماً من قبل في مباني خططها وصممها المهندس المعماري بيلتس، والتي ينبغي التطرق إليها أيضاً.

فَكَرْم (بستان) حناوي مثلاً موجود في مكان ما من العالم، في ذاكرة أبناء العائلة أو في وثائق قديمة، وبالتالي يمكن أن يعود ويُطالب بحقه وملكيته للمجال. هنا إحتاجت برغر إلى استخدام نص مبالغة تخرج فيه عن المجال المقلص الذي تكتب عنه: كَرْم الحناوي لا يزال قائماً، غير أنه يجب الانفصال عن المجال بغية العثور عليه (اي الكَرْم)، أما "ديزنغوف سنتر" فقد كان قائماً من قبل في مباني خططها وصممها المهندس المعماري بيلتس، والتي ينبغي التطرق إليها أيضاً.

ويصف كتاب برغر تل ديزنغوف كنصب تذكاري غير واعٍ أو مدرك لكل الأماكن التي تكالبت عليه، أو التي حطت ورحلت. كذلك فإن الكتاب أيضاً هو نصب تذكاري، ومن ناحية عملية فإن الكثير من كتب التاريخ التي تكتب في البلاد تسخر لهذا الغرض علناً أو سراً[٢٦]. وبحسب مصطلحات بيير نوريه فإن الكتاب هو "مكان ذكريات" يحفظ جزءاً من الماضي بعدما أتى التقدم ودثر معظمه. أحد أهداف كتاب برغر هو الحفر والتنقيب في التل لإنقاذ ما تبقى، وإلاّ فإنه لن يعمر ويبقى لزمن طويل[٢٧].

٦- "ديزنغوف": هل هو "إسرائيلي"؟!

تل أبيب ليست مدينة فقط، وإنما هي أيضاً مفهوم ورمز. وقد وضعت منذ إقامتها مقابل القدس والمستعمرات، ومثلت، حتى عندما كانت لا تزال بلدة صغيرة، فكرة المدينة الكبيرة. فهي ترمز إلى طبيعة إسرائيلية، معزولة ومنفصلة عن الروايات الكبرى التي تشكل وتصوغ الحياة الإسرائيلية.

زالي غوربيتس وغدعون أورن (١٩٩١، ص٤٣) طرحا ذلك على النحو التالي:

تل أبيب ... كلها "إسرائيلية"، لكنها "لنا". فهي تُجَسِّدُ بالثقافة الإسرائيلية الراهنة التحرر من الصراع على المكان، الخروج من اللاإسرائيلي الكامن في الإسرائيلي، من اليهودية من جهة، ومن محلية العرب من جهة أخرى... تل أبيب هي الانصراف أو التفرغ لشؤون المكان الصغير.

تل أبيب هي نموذج الكون الإسرائيلي الذي تتمثل شؤونه اليومية الإنسانية بالمعيشة والثقافة والمجتمع والتمتع بالحياة[٢٨]. وعلى رأي العديد من الباحثين فقد لاقت الصهيونية صعوبة في مواجهة مصطلح "المدينة" (كوهن ١٩٧٣). فالفكرة الصهيونية الاشتراكية، التي تربوا ونشأوا عليها في حركات الشبيبة، دعت أتباعها إلى الانتقال من المدينة إلى القرية. واعتبرت المدينة رمزاً للبرجوازية، وتجربة منفوية تناقض في جوهرها الهرم المقلوب في التشغيل الذي سعت إليه الصهيونية. لهذا السبب تطورت المدينة إلى حد ما خارج المفاهيم والمنطلقات التخطيطية المهيمنة، ونشأت فيها إمكانيات مفاجئة لم يخطط لها من فوق.

ويبرهن كتاب برغر كيف يشكل منطق المدينة عناصر – ذوات – مركبة وكيف تتوارى في أزقتها قصص تقويضية وفيرة. وعلى عكس "الكيبوتس" و "الموشاف"، فإن المدينة العبرية باستطاعتها أن تكون الأرض أو البقعة الخيالية (الطوبائية)، الجامعة لروايات متناقضة.

لقد كان ديزنغوف، قبل شينكين بكثير، مصطلحاً يلخص الماهية الرمزية لمدينة تل أبيب ويلخص مفهوم أو مصطلح المدينة بمجمله[٢٩]. ويساوي "ديزنغوف" في الخطاب الإسرائيلي الشعبي حياة الترف والملذات والاستهلاك بل ويساوي ما بعد الصهيونية. ويدير "ديزنغوف" ظهره نائياً بنفسه عن الصراع القومي وأساطير البطولة ومسائل الحقوق و "من الذي كان هنا أولاً". لهذا السبب ارتبط الاسم بالسطحية والضحالة، لكنه ارتبط في الوقت ذاته أيضاً بالشعور بالارتياح والثبات والاستمرارية التي تحل عندما يخيل أن الصراعات الكبرى إنتهت وأنه يمكن الاحتفاظ بمكان من شأنه أن يوفر المتعة في هذا العالم. و ديزنغوف بصفته تجسيداً للتطلع الصهيوني نحو الطبيعية، يمثل من جهة أولى المكان الواقع خارج المكان، والذي يناقض المنطق القاسي والفظ لهذه البلاد، وهو ذاته، من الجهة الأخرى،

إن كتابة تاريخ تل أبيب كرواية يهودية داخلية – في الوقت الذي كان فيه قسم من مشرديها يقطنون في ما كان يعرف حتى فترة قريبة بـ "ضاحية النوم" أي في مخيمات غزة – يمكن أن يفسر كإستمرار لإقصاء العرب من الرواية. فمهمة إنشاء تل أبيب كمعقل للطبيعية الإسرائيلية هي مشروع في صيرورة دائمة، فبعد الطرد الجسدي جاءت التأرخة لتقصي وتبعد الفلسطينيين من المدينة مرة أخرى.
وبالنسبة لكاتبة تعي جيداً المسائل الأخلاقية والسياسية للكتابة التاريخية، فإن الهوة بين الجزء الأول من الكتاب وبين جزئيه الآخرين اللذين يتحدثان عن اليهود فقط، تولد مشكلة.

المكان الذي يصبون إليه ويحلمون به. وهكذا فإن ديزنغوف، الذي يجسد جوهر الهرب الـ " تل أبيبي " ، انتقل من التسكع في الشارع " الحقيقي " إلى التسكع في الشارع المصطنع، المحصن من مضار الطقس والكائن بملكية خاصة داخل مركز تجاري.

ويستخدم ديزنغوف، كرمز سياسي وكمؤشر لاتجاهات في المجتمع الإسرائيلي، لتعريف عملية الاندماج في الحضارة الغربية والنسيان المنسوبة إلى إسرائيل العلمانية على حد زعم حملة وحراس الذاكرة (اليهودية) في أيامنا، مستوطنو " غوش إيمونيم " .

الضد التام لديزنغوف هو مدينة الخليل [" حبرون "] التي يبدي (المستوطنون) اليهود فيها استعداداً للمخاطرة بحياتهم وأن يَقتلوا و يُقتلوا، ناهيكم عن التخلي عن أحلام برجوازية، وذلك من أجل تجسيد واجب الذكرى المقدس، ذكرى آباء الأمة أو ذكرى القتلى في الأحداث الدامية سنة ١٩٢٩ (بيغا، ٢٠٠٢ ب).

في عيد بوريم [عيد " المساخر " اليهودي] سنة ١٩٩٥ ارتكب باروخ غولد شتاين في الخليل مذبحة ضد مصلين مسلمين في الحرم الإبراهيمي، وفي عيد " بوريم " سنة ١٩٩٦ وقع هجوم إنتحاري أمام ديزنغوف سنتر في تل أبيب.

وهكذا فإن " بوريم " ، عيد الضد اليهودي، يربط تاريخ الخليل بتاريخ ديزنغوف ويطرح السؤال: إلى أي حد يمكن للضدين – الذاكرة والنسيان، الصهيونية الجديدة والما بعد صهيونية – أن يتحدا ويؤثرا على الوجود الإسرائيلي الكائن في الوسط؟[٣٠]

تستهل برغر كتابها وتنهيه بالإشارة إلى الهجوم في ديزنغوف. والأماكن الجديدة – المستبدلة – (في الشارع) مثل الحافلة ومركز التسوق والمقهى وممر المشاة، تعتبر أهداف سهلة أو " ضعيفة " جداً أمام الإرهاب. فهي لا تحتوي على تعريف واضح لهوية محلية، ولذلك باستطاعة المهاجم الاقتراب من ضحاياه دون أن يُكشف. في حين من الصعب جداً القيام بذلك في مكان له نموذج أو صيغة محددة، تتكشف فيه غرابة الغريب بشكل فاضح من بعيد. الفلسطينيون الذين خططوا ونفذوا هذا الهجوم أو الاعتداء، أرادوا كما في الاعتداء السابق على حافلة للركاب في تل أبيب، ضرب رمز الطبيعية الإسرائيلية. من السهل النظر إلى هذا الحدث باعتباره أيضاً إغلاقاً للدائرة: فها هم مشردو الماضي يعودون ليحطموا الحياة البرجوازية الهادئة ظاهرياً، والتي شيدت على أنقاض مأساتهم (نكبتهم). برغر لا تتطلع إلى هذا النوع من إغلاق الدائرة حتى إذا كان الماضي الذي تصفه دوماً ماثلاً في الحاضر. فهي تروي قصة تل متراكم، وبالتالي ما من إمكانية للعودة إلى جذر أو قاعدة التل. وبعد وصفها لشخصية حناوي والنزوح عن يافا، تترك برغر جانباً الإشكالية اليهودية – العربية وتنتقل لمناقشة منطق التطور الرأسمالي للمدينة[٣١]. ويمكن من هذه الناحية توجيه نقد لكتاب برغر، بالقول إن الإبعاد والإقصاء في تل أبيب لم ينتهيا في العام ١٩٤٨.

فقد أُثير كموتيف عقب الهجمات الإرهابية وظهور الشعار الشهير الذي نادى به إسحق رابين " لنخرج غزة من تل أبيب " .

إن كتابة تاريخ تل أبيب كرواية يهودية داخلية – في الوقت الذي كان فيه قسم من مشرديها يقطنون في ما كان يعرف حتى فترة قريبة بـ " ضاحية النوم " أي في مخيمات غزة – يمكن أن يفسر كإستمرار لإقصاء العرب من الرواية. فمهمة إنشاء تل أبيب كمعقل للطبيعية الإسرائيلية هي مشروع في صيرورة دائمة، فبعد الطرد الجسدي جاءت التأرخة لتقصي وتبعد الفلسطينيين من المدينة مرة أخرى.

وبالنسبة لكاتبة تعي جيداً المسائل الأخلاقية والسياسية للكتابة التاريخية، فإن الهوة بين الجزء الأول من الكتاب وبين جزئيه الآخرين اللذين يتحدثان عن اليهود فقط، تولد مشكلة.

تجربة برغر يمكن تركها كسؤال مفتوح: هل يمكن ويجوز كتابة تاريخ من هذا القبيل أو بهذه الطريقة؟ هل يمكن لكتاب واحد أن يجمع بين رواية ما بعد صهيونية عن ابعاد وطرد العرب ورواية ما بعد حداثية عن استبدال الشارع بمركز تسوق؟! وإذا كان يمكن امتلاك نظرة نوستالجيا (حنين إلى الوطن) تجاه العربي المشرد والمطرود، فهل يمكن لمثل هذه النظرة أن تنسحب أيضاً على سكان تل أبيب اليهود، الذين أخذت مدينتهم تغير وجهها دون أخذ رفاهيتهم بالحسبان؟!

ويبقى السؤال مفتوحاً ليس فقط حيال الكتابة التاريخية: فهي تطرح أسئلة بشأن تعريف الواقع الإسرائيلي الراهن الذي يصوغ ويطبع بطابعة الكتابة التاريخية. والسؤال غير المحلول هو: هل الصراع الإسرائيلي – الفلسطيني هو العامل الرئيسي الذي يشكل الواقع الإسرائيلي، أم أن المنطق الرأسمالي هو الذي أخذ على عاتقه هذا الدور؟!

هل سيجلب عيد "بوريم" المقبل معه إعتداءً يعيد الوجود "التل أبيبي" إلى التاريخ المثخن بالصراع؟ وربما يكون العكس، بحيث تتكشف الإمكانية "التل أبيبية" كإمكانية مهيمنة وبالتالي تجر باقي البلاد إلى دوامة التطور الرأسمالي الذي يحدد بطريقته الخاصة ضحاياه؟![٣٢]

يبدو أن برغر ذاتها مترددة ولا تعرف إذا ما كانت الصرخة المقبلة ستكون صرخة فتاة تلتقي صديقتها أو تواجه هجوماً انتحارياً. لقد اختارت برغر أن تزين غلاف كتابها بالذات بصورة لإسرائيليين يقفون في لحظة انطلاق الصافرة ويحدقون بطريقة توحي كما لو أنهم "يقولون" للمؤلفة أن الرواية المشكلة والبانية لحياتهم ما زالت رواية الأمة الغارقة في صراع قومي. أما نص برغر ما بعد الصهيوني فهو مُتضَّمن أو مشمول بصورة رمزية داخل المجموعة القومية الصهيونية. هذا الغلاف وما ينطوي عليه من مغزى ومدلول أود مناقشته في الجزء التالي من نهاية المقال.

٧-وقفة صمت على الغلاف: التاريخ، الذاكرة والنسيان

تظهر على غلاف الكتاب صورة يقف فيها إسرائيليون وقفة إجلال و صمت أثناء انطلاق صافرة أمام ديزنغوف سنتر. اللحظة التي التقطت فيها الصورة هي لحظة الكسر الرمزي للزمن

عملية ٤ آذار ١٩٩٦ في شارع ديزنغوف

من قبل المجموع، لحظة التزامن أو التطابق للمجتمع الإسرائيلي المُتَخيَّل. وكما يقول إيال دوتان (٢٠٠٣، ص١٦) فإن "هذا الصوت هو دعوة للتضامن القومي والشخصي على حد سواء مع الضحايا والأبطال الميتين (ولكن أيضاً مع موقف الذات، الأنا، الإسرائيلية المعيارية)". ليس من الواضح ما إذا كانت الصورة قد التقطت في يوم إحياء ذكرى "الكارثة والبطولة" [ذكرى ضحايا المحرقة النازية] أو في يوم إحياء ذكرى قتلى الجيش الإسرائيلي، لكن واضح أن الزمن العام ومعه الماضي اليهودي و الإسرائيلي، يقتحمان مجال الفرد ويجبران المواطن على الوقوف في مكانه.

فالأمة تنادي المواطن وهذا بدوره، بالقطع إذا كان يهودياً، يلبي غالباً النداء طوعاً[٣٣]. وتبرز الصورة هنا التجانس ووحدة الحال: إذ يبدو كل الحضور، رجالاً ونساءً، شيباً وشباناً، أغنياء وفقراء وهم يقفون معاً. فالصورة تخلد هذه اللحظة، لحظة التوحد والتجانس التي يربط فيها الأفراد، المكونون للصورة، أنفسهم بالمجموعة (أو المجتمع) القومية المُتَخَّيلة، التي لا تظهر في الصورة. وبين توحدهم مع أنفسهم وتوحدهم مع المجموع القومي يحدث انفصال عن الحالة ذاتها، وعن الأشخاص الموجودين في محيطهم المباشر، أولئك الذين يظهرون في الصورة. إذ يحاول كل واحد من الحضور الهرب من نظرة الآخر، وباستثناء الآباء والأبناء فإنه ما من صلة أو رابطة بين الشخصيات، التي تتجه كل واحدة منها في لحظة توحدها إلى جهة مختلفة (على الرغم من أن كل مواطن يراقب عبر حضوره ويحاول التأكد من أن المواطنين الآخرين يؤدون المراسم ذاتها). والتوحد هنا هو مع مجموعة مجردة، وهناك حاجة أثناء القيام بها للانفصال عن الإسرائيليين القريبين الذين هم أيضاً جزء من ذات مجموعة المصير. والوحدة هي في ذات الوقت عميقة وسطحية،

خلاصة القول فإن معظم التآمر في إسرائيل يقع في إطار المؤسسة الصهيونية، وهذا ما تعبر عنه برغر في غلاف الكتاب بشكل رمزي: فالكتاب الذي قد يكون من بين الكتب الأكثر نقدية وتآمرية (تقويضية) التي صدرت في إسرائيل في السنوات الأخيرة، مغلف بصورة الطقس (المراسم) الاسرائيلي النهائي. ربما كانت برغر تقصد بذلك بث رسالة مُهادنة أو تصالحية، فهي رغم كل شيء جزء من المجموع القومي.

وفي ذروتها تنتصب ماثلة للعيان الخصوصية والانقسام.

مركز تسوق "ديزنغوف سنتر"، الذي يظهر في خلفية الصورة، لا يمثل على ما يبدو الهدف الذي قصده الناس بقدومهم، فـ "أيام الذكرى" ليست وقتاً ملائماً لزيارة قصور الملذات والمتعة[٣٤]

ويتناقض عنوان الكتاب "ديونيسوس في سنتر"، تناقضاً صارخاً مع الصورة المعبرة عن هذا التضامن القومي. فالصورة لا صلة لها بالجانب الديونيسي، كما أن الـ "سنتر" الذي يظهر في الخلفية ما هو إلاّ زخرفة عابرة. وصورة من هذا القبيل كان يمكن إلتقاطها في ذات اللحظة في أماكن كثيرة أخرى في أنحاء إسرائيل، ذلك لأن الصافرة في جوهرها تقف فوق البقعة الجغرافية وخارج نطاقها، أما الإنسان الواقف فهو يُخَلِّد بوقوفه المجال العفوي الذي وجد نفسه فيه بالصدفة في اللحظة نفسها (نفس المصدر، ٢٠٠٢). علاوة على ذلك فإن الفكرة الكامنة خلف الصورة تناقض مقصد المؤلفة: فهي تتحرى التاريخ والذاكرة اليهوديين والعربيين المرتبطين بالمجال، وسط عرض مارة بالصدفة يعبرون عن تضامن قومي مع أناس قضوا نحبهم في مكان آخر وفي إطار رواية أخرى لا حاجة في الظاهر لأن تكون من شأن أو محط اهتمام المؤلفة في هذا الكتاب.

عموماً يمكن تصور تفسيرين إثنين لظهور هذه الصورة على ظهر الغلاف بالذات. الأول هو تفسير بسيط لمدلول الصورة. ففي فيلم إيال سيون "عبيد الذاكرة" يسكب يشعياهو ليفوفيتش النار والبارود على مراسم إحياء الذكرى الإسرائيلية، والتي يرى فيها تثقيفاً وتربية على العسكرتارية. ولما سُئل ليفوفيتش في مقابلة إذا ما كان شخصياً يقف عند انطلاق الصافرة، بدا ليفوفيتش كمن أحس بالإهانة إزاء هذا السؤال مؤكداً في إجابته أنه يقف قطعاً لأنه جزء من الشعب الذي اختار هذا السلوك.

خلاصة القول فإن معظم التآمر في إسرائيل يقع في إطار المؤسسة الصهيونية، وهذا ما تعبر عنه برغر في غلاف الكتاب بشكل رمزي: فالكتاب الذي قد يكون من بين الكتب الأكثر نقدية وتآمرية (تقويضية) التي صدرت في إسرائيل في السنوات الأخيرة، مغلف بصورة الطقس (المراسم) الاسرائيلي النهائي. ربما كانت برغر تقصد بذلك بث رسالة مُهادنة أو تصالحية، فهي رغم كل شيء جزء من المجموع القومي.

التفسير الثاني مؤداه أن برغر تخرج "الطقس" من سياقه الأصلي. فكتابها كرس ليكون نصباً تذكارياً. وهي في الواقع تعلن صراحة بأن الماضي لم يمت، ولذلك تطرح أحياناً إدعاءات بشأن صلة مستمرة للماضي داخل هيكل النسيان الـ "تل أبيبي". وتقتبس برغر مقولة فلتر بنيامين: "الشيء الذي حدث لا يجوز اعتباره كما لو كان شيئاً مفقوداً"، موردة أمثلة على مطالب قبائل "الأبورجينيم" التي حصلت على حقوق قانونية في المجال الذي كان بملكيتها في الماضي. وتتساءل برغر هنا: لماذا لا يحصل أبناء عائلة حناوي أيضاً على حقوق مشابهة؟! لكن هذه الطروحات تبدو في السياق الإسرائيلي شبه مستحيلة بل ورومانسية.

فكل ما تبقى من حضور أبناء عائلة حيناوي هو كتاب برغر ليس إلاّ. سكان حي نورديه تركوا وراءهم حصيلة أدبية مثيرة، قامت برغر بعرضها وتحليلها، لكنهم وفيما عدا ذلك، غير موجودين في المجال كما أنهم أيضاً لا يستطيعون العودة إليه سوى في ذاكرتهم. ولعل قوة الكتاب الأخلاقية تنبع من الحقيقة الواضحة للجميع وهي أنه وفيما خلا الانتقال إلى الخلاص المحدود الذي يمنحه باحثو الماضي، فإن أصحاب المكان السابقين لن يحصلوا على شيء.

ومثلما سلبت إسرائيل اليهودية المجال من أصحابه العرب، وسلبه أصحاب رؤوس الأموال من أصحابه الفقراء (والمؤلفة تسلبه لصالح روايتها) فإن برغر تنتزع أيضاً مراسم إحياء الذكرى والتخليد الإسرائيلية المحضة من سياقها وتسخرها كإطار لكتابها.

وهي تفعل ذلك حيال المراسم التي تصادر الزمن الخاص

لصالح الزمن القومي، وقد استطاعت القيام بذلك نظراً لأن المراسم تفتقد الدلائل الواضحة التي تربط المراسم بهدفها. وبرؤية متبصرة يبدو أن الإسرائيليين لن يقفوا وقفة صمت – و لا حتى في المستقبل المنظور – لذكرى الدمار الذي جلبته معها عملية تصميم وتشكيل المجال الذي يخدمهم. على غلاف كتاب برغر يقف الإسرائيليون وقفة صمت، ومثلما أن المجال صودر مرة تلو أخرى من سكانه السابقين عن طريق العنف الجسدي والبروقراطي، فإن لفتة إحياء الذكرى المقدسة تصادر أيضاً، بخطوة تشف عن عنف رمزي، من منفذيها الراهنين. صورة الغلاف تدمغ الكتاب كنصب تذكاري لكل ما هو مدفون تحت التل المجازي المسمى تل أبيب.

التردد الذي يلازم الكتاب، بين التفسيرات الـ "صحيحة" وبين تاريخ المجال، ما هو إلا جزء من النصب التذكاري الذي تشيده تمار برغر للذين يشكلون موضوع بحثها. وحيث أنها غير ملزمة من ناحية قيمية تجاه رواية صهيونية تقدمية، ولا تخرج في الوقت ذاته غاضبة لتحطيم مثل هذه الرواية، فإن كتابها يبدو متصالحاً مع التاريخ. وبمعنى معين فإن الكتاب يقترح تأرخة نسائية. صحيح أنه لا يفعل ذلك صراحة و أنه يحتوي على قليل من التاريخ النسوي، لكنه يبدو مستعداً للتنازل عن تقصي مسائل تتعلق بالمعارك وعمليات الطرد والهيمنة والحقوق.

وتختم برغر كتابها بفنتازيا نسائية غريبة، يختفي في إطارها النص العلمي (سوية مع موضوع بحثها) ويتبدد في الهواء: "في حلمي أرى ديزنغوف سنتر يتبدد في الهواء فيما كل قاطنيه ونزلائه وبناته ومشرديه ومشغليه يرقصون بين كروم دواليه. بعد ذلك ابتعت لنفسي ثوباً" (نفس المصدر السابق ٢٧٧).

من المشكوك فيه أن يطرأ، في أعقاب هذا الكتاب، أي تغيير في الكتابة التأريخية الإسرائيلية، ويرجع ذلك فيما يرجع نظراً لأن المؤرخين لا يميلون إلى تفكيك أو تحطيم حدود المنهج العلمي الذي يمنحهم الصلاحية والمكانة. بيد أن من الأهمية بمكان أن نتأمل من حين إلى آخر وأن نعير انتباهنا إلى كتابة أخرى لنقف من خلالها على قيود ومعيقات الكتابة المأسسة سواء كانت تدعى (كتابة) مؤسسية أو كتابة جديدة.

ببلوغرافيا (بالعبرية)

- أوفير، عادي ١٩٩٩ "ساعة الصفر"، ٥٠ لـ ٤٨: لحظات انتقادية في تاريخ دولة إسرائيل – [تيئوريا فبكورت ١٢-١٣](صيف) معهد فان لير في القدس و الكيبوتس الموحد، القدس و تل أبيب ص١٥-٣١.
- أزولاي، أريئيلا وعادي أوفير ٢٠٠٢، "أيام سيئة" راسلينغ – تل أبيب.
- إيال، غيل، ٢٠٠٤ "بين الشرق والغرب: الخطاب حول القرية العربية في إسرائيل" – "الكولونيالية والوضع ما بعد الكولونيالي: مختارات من الترجمة والمصدر" تحرير يهودا شنهاف، معهد فان لير في القدس والكيبوتس الموحد – تل أبيب ص٢٠١-٢٢٣.
- إليئور، تمار ١٩٩٢. "مثقفات وجاهلات: من عالم النساء الحريديات" عام عوفيد، تل أبيب، ... ١٩٩٨. "في البيسح المقبل: النساء والاستشراق في الصهيونية الدينية" عام عوفيد، تل أبيب.
- الغازي، غادي ١٩٩٩ "بين الإنسان والمكان" هآرتس ٦/٤/١٩٩٩.
- الموغ، عوز ١٩٩٧ "الصباري: صورة عن قرب" عام عوفيد، تل أبيب.
- بيلو، يورام ١٩٩٣ "بدون مصر: حياة وموت الحاخام – يعقوب فازنا" ماغنس، القدس ... ١٩٩٧ "بحث الثقافة الشعبية في عصر ما بعد الحداثة: قصة شخصية" [تيئوريا فبكورت– عدد ١٠ (صيف): ٣٧-٥٤].
- بنيامين، فلتر ١٩٩٢ – الجزء الأول: الكيبوتس الموحد، تل أبيب ... ١٩٩٦ الجزء الثاني: تأملات. الكيبوس الموحد، تل أبيب.
- بن عاموس، أبنير ١٩٩٨ "عندما تتجاهل الجغرافيا التاريخ" هآرتس ملحق "سفارديم" [كتب] ٢٩٤ ١٤/١٠/١٩٩٨ ص٢.
- براشيت، حاييم ٢٠٠٣ " غبعات علياه كمثل: ثلاثة أبعاد" – "مجال، أرض، بيت" تحرير يهودا شنهاف، معهد فان لير في القدس والكيبوتس الموحد ص٢٥١-٢٥٦.
- برغر، تمار ١٩٩٨ : "ديونيسوس في سنتر" الكيبوتس الموحد تل أبيب.
- بارطال، يسرائيل ١٩٩٧ "مصطلحات "الشعب" و "البلاد" في التأرخة الصهيونية حتى ١٩٦٧" – بين الرؤيا والإصلاح: مائة عام من التأرخة الصهيونية، تحرير يحيعام فايتس، مركز زلمان شزار، القدس، ص٣٧-٥٠.
- برناي، يعقوب ١٩٩٥ "التأرخة والقومية: اتجاهات في بحث أرض إسرائيل واستيطانها اليهودي ٦٣٤-١٨٨١" ماغنس، القدس.
- غوتوين، داني ١٩٩٧ "تأرخة جديدة أم خصخصة للذاكرة" – "بين الرؤيا والإصلاح..." تحرير يحيعام فايتس، مركز زلمان شزار ص٣١١-٣٤٤.
- غونين، عميرام ١٩٩٨ "إسرائيل: اليوم، أمس وأول من أمس. أماكن في إسرائيل: صور من الماضي والحاضر" كيتر، وزارة الدفاع، القدس.
- غوربيتس، زالي وغدعون أورن ١٩٩١– "عن المكان (أنثروبولوجيا إسرائيلية)" ألفايم ٩:٤-٤٤.

- غينوسار، بنحاس وآبي برالي (تحرير) ١٩٩٦ - "الصهيونية: سجال معاصر" سدية بوكر، المركز لتراث بن غوريون.
- غريتس، نوريت، اورلي لوفين وغاد نئمان (تحرير) ١٩٩٨. "نظرات وهمية : حول السينما الإسرائيلية" . الجامعة المفتوحة، تل ابيب.
- دغلس، ميري ٢٠٠٤. "النقاء والخطر: تحليل لمصطلحات التلوث والتابو" راسلنغ، تل ابيب.
- دوتان ، ايال ٢٠٠٣ " نداء في الصحراء : الاستجواب، الايديولوجيا والصدفة" تيئوريا فبكورت ٢٢ (ربيع): ٩-٣٤.
- هوروبيتس، دان وموشيه ليسك، ١٩٩٠. "مشكلات في اليوتوبيا" عام عوفيد، تل ابيب.
- فينريب العزار ٢٠٠٣ " تاريخ - أسطورة أم واقع : خواطر حول أوضاع المهنة " الجامعة المفتوحة، تل ابيب.
- زيف، عماليا ١٩٩٩ " دانا انترنشيونال" . ٥٠لـ ٤٨: لحظات انتقادية في تاريخ دولة إسرائيل. (تيئوريا فبكورت) ١٢-١٣ (صيف) معهد فان لير في القدس والكيبوتس الموحد تل ابيب ص٤٠١-٤١١.
- حيفر حنان، يهودا شنهاف وبانينا موتسبي- هالر (تحرير) ٢٠٠٢.
- " شرقيون في اسرائيل : مراجعة نقدية جديدة" معهد فان لير في القدس والكيبوتس الموحد.
- كوهن، اريك ١٩٧٣ "المدينة في الايديولوجيا الصهيونية" المدن في اسرائيل، تحرير اريبه شاحر وآخرين، اكاديمون ، القدس ص ٥-١٠.
- قزوم، عزيزة ١٩٩٩ " الثقافة الغربية الدمغ الاثني والانغلاق الاجتماعي : خلفية عدم المساواة الاثنية في اسرائيل." سوسولوجيا اسرائيلية ا (٢) : ٣٨٥-٤٢٣.
- كترئيل، تمار ١٩٩٩ . " مفردات أساسية : أنماط الثقافة والاعلام في إسرائيل" جامعة حيفا وزمورا بيتان، حيفا.
- لبيء، سمدار و تيد سفيدبرغ١٩٩٥ "بين وداخل حدود الثقافة" (تيئوريا فبكورت/٧)(شتاء) : ٧٦-٨٦.
- مان ، باربرا ٢٠٠١ "اليشوف سار خلف القبور: المقبرة القديمة في تل ابيب كمكان ونص". مخان بـ :٥-٣٢.
- موتسبي- هالر، بانينا ١٩٩٧" لديك صوت اصيل : البحث الإنثروبولوجي وسياسة التمثيل خارج المجتمع المبحوث وداخله،" (تيئوريا فبكورت/ ١١) (شتاء) ٨١-٩٨.
- موريس، بيني، ١٩٩٦ " نظرة جديدة على وثائق صهيونية مركزية" الفايم ١٢ : ٧٣-١٠٣.
- .... ١٩٩٧ " التأرخة الصهيونية وفكرة الترانسفير في سنوات ١٩٣٧-١٩٤٤" بين الرؤيا والإصلاح: مئة عام من التأرخة الصهيونية،" تحرير يحيعام فايتس، مركز زلمان شزار ، القدس ص ١٩٥-٢٠٨.
- نورا، بيير، ١٩٩٣ "بين الذاكرة والتاريخ : زاوية الذاكرة " زمانيم ٤٥: ٤-١٩.
- نيني، يهودا ١٩٩٧ . " أكنت أم حلمت حلما" عام عوفيد تل ابيب.
- سفيباك ، بتاري شكرفرتي، ٢٠٠٤." وهل يستطيع الخاضعون التحدث ؟" الكولونيالية والوضع ما بعد الكولونيالي: مختارات من الترجمة والمصدر " تحرير يهودا شنهاف، معهد فان ليرفي القدس والكيبوتس الموحد تل ابيب ص ١٣٠-١٨٥.
- عوز، عاموس ٢٠٠٢ "قصة عن الحب والظلمة"، كيتر، القدس.
- عزرياهو ، معوز ١٩٩٨ "عبرنة البلاد" صنع الخريطة العبرية في الخمسينيات " غيشر ١٣٧: ٦٣-٦٥.
- .... ٢٠٠٠ "صعود وافول شارع ديزنغوف" بنيم ١٣: ٦٠-٦٩.
- فوكو، ميشيل،٢٠٠٣ " الأرض اليوتوبية" ترجمة ارئيلا ازولاي، راسلينغ، تل ابيب.
- بتربرغ ، غابي ٢٠٠٤ " الأمة ورواتها: التأرخة القومية والاستشراق" الكولونيالية والوضع ما بعد الكونوليالي: مختارات من الترجمة والمصدر. تحرير يهودا شنهاف ، معهد فان لير في القدس والكيبوتس الموحد، تل ابيب ، ص٢٢٤-٢٥٦.
- بيغا ، ميخائيل ١٩٩٩. " يشع هنا، مناطق هناك :الطرق العلمية وتشكيل المجال في اسرائيل" (تيئوريا فبكورت/ ١٤) (صيف): ١١١-١٣١.
- .... ،١٢٠٠٢ " صبيحة الغد تتذكر يوم ليلة الأمس" تحرير مرون بنفينستي، كرمل القدس ص٥٢١-٥٦٨ .
- ...، ٢٠٠٢ ب . "خريطتان للضفة : غوش امونيم ، السلام الآن وتصميم المجال في اسرائيل "، ماغنس، القدس
- بابه ، ايلان ، ٢٠٠٠ " النخب ، التاريخ الاجتماعي والكتابه
- الـ "بوست كولونيالية" في اسرائيل / فلسطين " (تيئوريا فبكورت١٧) (خريف) : ٢٢٣-٢٣٠.
- ... ، ٢٠٠٢ " قضايا كاتس والطنطورة : تاريخ ، تأرخة ، قانون وأكاديمية". (تيئوريا فبكورت٢٠) (ربيع) ١٩١-٢١٧. .
- برلينغ ، طوفيا ، محرر، ٢٠٠٣. "رد على زميل ما بعد صهيوني" يديعوت احرونوت، تل ابيب.
- فرانكل ، ميخال، حنة هرتصوغ ، ويهودا شنهاف ١٩٩٦ " الرأسمالية الوطنية : بين مشاريع البحر الميت ومدينة الزهور" (تيئوريا فبكورت٩)(شتاء): ١٥-٤٠.
- تسور يارون ، ٢٠٠٠ " فزاعة الكرنفال : المغاربة والبديل في المشكلة الطائفية في إسرائيل الفتية" الفايم ١٩: ١٢٦-١٦٤.
- تسحور، زئيف ١٩٩٨ " اليقظة: حلم الدولة والحصيلة" مودن، تل ابيب .
- كامو، البير ١٩٩٥ " الانسان الاول " عام عوفيد ، تل ابيب.

- كيدار، بنيامين زئيف، ١٩٩٢ " نظرة ونظرة اخرى الى ارض اسرائيل : صور جوية من فترة الحرب العالمية الاولى مقابل صور من الفترة الحالية " ياد اسحق بن تسفي، وزارة الدفاع تل ابيب .
- كميرلنغ ، باروخ، ١٩٩٢. " عن معرفة المكان" الفايم ٦: ٥٧ ٦٨.
- كميرلنغ، باروخ و يوءال ميغدال ١٩٩٩ " الفلسطينيون: صيرورة شعب" كيتر، القدس .
- رابينوفيتش، دان " نوستالغيا شرقية : كيف تحول الفلسطينيون الى "عرب اسرائيل" (تيئوريا فبكورت٤) (خريف):١٤١–١٥١.
- ...،١٩٩٨ " الانثروبولوجيا والفلسطينيين" مركز بحث المجتمع العربي، رعنانا.
- راز–كركوتسكين، امنون، ١٩٩٨ " بين ديزنغوف سنتر وبحر غزة" هآرتس ، ملحق "سفاريم" ٢٨٨ ، ٢/٩/١٩٩٨ ص٢١.
- رام، اوري (محرر)١٩٩٣ . " المجتمع الاسرائيلي: جوانب انتقادية " بريروت، تل ابيب .
- ...، ١٩٩٦ أ " الذاكرة والهوية : سوسيولوجيا جدل المؤرخين في اسرائيل" (تيئوريا فبكورت٨) (صيف) : ٩–٣٢.
- ...، ١٩٩٦ ب "بين الماضي والحاضر : التأرخة الصهيونية واختراع الرواية القومية اليهودية: بناكسيون دنيور وعصره، تحرير بنحاس غينوسار آبي برالي ، سديه بوكر ، المركز لتراث بن غوريون، ص ١٢٦–١٥٩.
- سيغف ، توم ، ١٩٨٤ . " ١٩٤٩ – الإسرائيليون الأوائل" دومينو ، القدس
- ...، ١٩٩٩ " عهد القبعات الحمر : ارض اسرائيل في حقبة الانتداب" كيتر، القدس.
- شفارتس ١٩٩٨ "شورو: مدينة ما بعد الحداثة تفتش عن غورو" – نظرات وهمية: حول السينما الإسرائيلية. تحرير نوريت غيرتس، أورلي لوفين وغاد نئمان، الجامعة المفتوحة، تل أبيب ص٣١٦–٣٢٧.
- شوحط، إيلاه ٢٠٠١ "شرقيون في إسرائيل: الصهيونية من وجهة نظر ضحاياها اليهود" ذكريات ممنوعة: نحو تفكير متعدد الثقافات. بيمات كيدم لسفروت، تل أبيب ص١٤٠–٢٠٥.
- شيلو/ مئير ١٩٨٨. "رواية روسية" عام عوفيد، تل أبيب.
- شيلي–نيومان، إستر ١٩٩٦ "الرحلة الليلية: لقاءات بين مهاجرين ومكانهم الجديد" بين المهاجرين والقدماء: إسرائيل في فترة الهجرة الكبرى ١٩٤٨–١٩٥٣. تحرير داليا عوفر، ياد إسحق بن تسبي، القدس ص٢٨٥–٢٩٨.
- شنهاف، يهودا، ٢٠٠٣ "اليهود العرب: القومية، الدين والإثنية" عام عوفيد، تل أبيب.
- شابيرا، أنيتا ١٩٩٤ "التأرخة والذاكرة: حادثة اللطرون ١٩٥٠" ألفايم ١٠: ٩–٤١.
- ....، ٢٠٠٤. يغئال ألون: أبيب حلدو" الكيبوتس الموحد، تل أبيب.

ببلوغرافيا (بالإنجليزية)

- asad، Talal (ed.)، 1998k. Anthropology and the Colonial Encounter. Amherst New York: Humanity Books.
- Berger، Tamar، 2002. "Sleep، Teddy Bear Sleep: Independence Park Petach Tikva: An Israeli Realm of Memory،" Israel Studies 7 (2): 1–32.
- Benvenisti، Meron، 2000. Sacred Landscape: The Buried History of the Holy Land Since 1948. Berkeley، California: University of California Press.
- Bernstein، Deborah، 2000. Constructing Boundaries: Jewish and Arab Workers in Mandatory Palestine–A Case Study of Haifa. New York: State University of New York Press.
- Beverley، John، 1999. Subalternity and Representation. Durham NC: Duke University Press.
- Bahbah، Homi K.، 1994. The Location of Culture. London: Routledge. Clifford، James، and George E. Marcus (ed.)، 1986. Writing Culture: the Poetics and Politics of Ethnography. Berkekey: University of California Press.
- Currie، Mark، 1998. Postmodern Narrative Theory. London: Macmillan.
- During، Simon، ed.، 1993. The Cultural Studies Reader. London: Routledge.
- Foucault، Michel، 1972. The Archeology of Knowledge. New York: Pantheon Books.
- ...، 1973. The Order of the Things. New York: Vintage Books.
- ...، 1980. Power/Knowledge: Selected Interviews and Other Writings، 1972–1977. New York: Pantheon Books.
- Cupat، Akhil، and James Ferguson (ed.)، 1997. Culture، power، place: Explorations in Critical Anthropology. Durham NC: Ducke University Press.
- Handelman، Don، and Leah Shamgar–Handelman، 1997. "The Presence of Absence: The Memorialism of

National Death in Israel، "in Grasping Land، ed. Eyal Ben–Ari and Yoram Bilu. New York: State University of New York Press، pp. 85–128.

– Huppert، George، 199j7. "The Annales Experiment،" in Companion to Historiography، ed. Michael Bentley. London: Routledge، pp. 873–888.

– Khalidi، Walid، 1991. Befor their Diaspora: A Pho– tographic History of the Palestinians 1876–1948. Washington DC.: Institute for Palestinian Studies.

– Kimmerling، Baruch، 1992. "Sociology، Ideology and Nation Building: The Palestinians and their Meaning in Israeli Society،" American Sociological Review 57:446–460.

– Lavie، Smadar، 1990. The Poetics of Military Occupa– tion. Berkeley: California University Press.

– Lockman، Zachary، 1996. comrades and Enemies: Arab and Jewish Workers in Palestine، 1906–1948. Berkeley: California University Press.

– Mann، Barbara، 2001. "Tel Aviv's Rothschild: when a Boulevard Becomed a Monument،" Jewish Social Studies 7 (2): 1–38.

– Nimmi، Ephraim (ed.) 2003. The Challenge of post–Zi– onism: Alternatives to Israeli Fundamentalist Politics. London and Mew York: Zed Books.

– Pappe، Ilan، 1995. "Critique and Agenda: The Post– Zionist Scholars in Israel،" History and Memory 7 (1): 66–90.

– Rabiniwitz، Dani، 1994. "The Visualization of a Na– tional Narrative of Space،" Visual Anthropology 6: 381–393.

– Sa'di، Ahmed H.، 2002. "Catastrophe، Memory and Identity: Al–Nakbah as a Component of Palestinian Identity،" Israel Studies 7 (2): 175–198.

– Shaffir، Gershon، and Yoav Peled (ed.)، 2000. The New Israel: Peacemaking and Liberalization. Boulder: Westview Press.

– Shalev، Michael، 1992. Labour and the Political Economy in Israel. Oxford: Oxford University Press.

– Silberstein، Lauremce، 1999. The Postzionist Debates: Knoeledge and Power in Israel Culture. New York: Routledge.

– Slymovics، Susan، 1998. The Object of Memory: Arab and Jew Narrate the Palestinian Village. Philadelphia PA: Pennsylvania University Press.

– Young، Robert، 1990. White Mythologies: Writing History and the West. Routledge: London and New Yok.

– Young، James، 1993. The Texture lf Memory: Holocaust Memorials and Meaning. New Haven: Yale University Press.

– Tuan، Yi–Fu، 1977. Space and Place: The Perspective of Existence. Minneapolis: Minneapolis University Press.

– White، Hyden، 1973. Metahistory: The Historical Imagination in Ninereenth Century Europe. Balti– more: John Hopkins University Press.

الهوامش

[1] للإطلاع على بحث آخر لبرغر يستمر في إتجاه مماثل أنظر Berger ٢٠٠٢.

[2] عن الصهيونية وإعطاء أسماء للأماكن أنظر عزرياهو ١٩٩٨؛ بيغا ١٩٩٩؛ Benvenisti ٢٠٠٠.

[3] يمكن التعرف على مجال الدراسات الثقافية من مصادر مختلفة، مثلاً During ١٩٩٣. وللإطلاع على أمثلة ونماذج تتناول أماكن ومصطلحات إسرائيلية أنظر كتريئيل ١٩٩٩، مان ٢٠٠١؛ Mann٢٠٠١.

[4] يمكن التعامل مع الكتاب من خلال مقاييس أخرى لم تطرح في هذا المقال.

[5] يدور الجدل حول التأرخة الجديدة منذ وقت طويل وقد كتبت في نطاق الكثير من المقولات والاستنتاجات الإجمالية. أنظر غينوسار وبرالي ١٩٩٦؛ فريلينغ ٢٠٠٣؛ مجلة "تيئوريا فبكورت" عدد (٨) ١٩٩٦، مجلة History and Memory عدد (٧) (١) ١٩٩٥؛ Nimni ٢٠٠٣؛ Silberstein ١٩٩٩.

[6] عن التاريخ في عصر ما بعد الحداثة أنظر فينريف ٢٠٠٣؛ Young ١٩٩٠.

[7] كما أرى فإن كتاب برغر يتراوح بين مناقشة الجانب القومي ومناقشة الجانب الاقتصادي كعوامل فاعلة في صياغة وبلورة التاريخ. لذلك لعله يمكن اعتبار التحليلات النادرة، التي تطرح تاريخ الرأسمالية الإسرائيلية كمحور للنقاش، بمثابة خروج عن رؤية الصهيونية والصراع كعاملين رئيسيين موجهين لتاريخ المكان. أنظر مثلاً ....

[8] للإطلاع على بحث ونقاش منهجي للكتابة الـ "بوست كولونيالية" أنظر بابه ٢٠٠٠ Shalev ١٩٩٢؛ Shaffir and Peled ٢٠٠٠.

[9] عن التحول إلى إتجاه إنثروبولوجيا ما بعد الحداثة أنظر على سبيل المثال Asad ١٩٩٨؛ Clifford and Marcus ١٩٨٦؛ Gupta and Ferguson ١٩٩٧.

[10] للاطلاع على نقاش في مسألة مشابهة أنظر سفيبك ٢٠٠٤. وصول مسألة الصلة بين التبعية والحديث أنظر فيزيف ٢٠٠٣ ج٣؛ Beverly ١٩٩٩.

[11] بطبيعة الحال فإن الكتب الشاذة هي كتب تبحث في التاريخ الفلسطيني ذاته وفي بحث هذه الكتب. أنظر كمرلينغ ومغدال ١٩٩٩؛ رابينوفيتش ١٩٩٨.

[12] الأدبيات النظرية والنقدية التي تتناول التأرخة الصهيونية كثيرة بحيث لا يتسع المجال هنا لاستعراضها أو تعدادها بالشكل اللائق. على سبيل المثال أنظر برناي ١٩٩٥؛ برطل ١٩٩٧؛ رام ١٩٩٦. خلال الخمسة عشر عاماً الأخيرة صدرت كتب تعكس عناوينها موتيف الحلم وانكساره، مثل كتاب دان هوروبيتس وموشيه ليسك (١٩٩٠) "مشكلات في اليوتوبيا"؛ كتاب يهودا نيني (١٩٩٧) "هل كنت أم حلمت حلماً؟" وكتاب زئيف تسحور (١٩٩٨) اليقظة: حلم الدولة ومحصلته.

[13] للاطلاع على نقاشات للعلاقة بين الصهيونية و الاستشراق أنظر كزوم ١٩٩٩؛ تسور ٢٠٠٠؛ شنهاف وموتسبي – هالر ٢٠٠٢، إيال ٢٠٠٤، بيطربرغ ٢٠٠٤.

[14] هناك بالفعل البومات كهذه أشهرها Khalidi ١٩٩١، أنظر Sa'di ٢٠٠٢.

[15] حول اصطلاح "الضحايا اليهود للصهيونية" أنظر شوحط ٢٠٠١.

[16] للإطلاع على أبحاث أنثروبولوجية تتناول الطريقة التي ينظر بها آخرون إلى المجتمع الإسرائيلي أنظر مثلاً شيلي – نيومان ١٩٩٦؛ سرد ١٩٩٥.

[17] من اللآفت مقارنة ذلك بشخصية موشيه نوبوميسكي، من المبادرين لإقامة مصانع البحر الميت. حسب مقال ميخال فرنكل، حنه هرتصوغ ويهودا شنهاف (١٩٩٦) فقد جند نوبوميسكي أيضاً (مثل ستيف فرتهايمر في الوقت الحالي) الصهيونية واتخذ منها نوعاً من أيديولوجية الإدارة وذلك لخدمة رأس المال الخاص، وبذلك وضع مرآة مقلوبة مقابل إدعاء الصهيونية بالمساواة الاجتماعية وتمثيل العمال.

[18] أثار غادي الغازي (١٩٩٩) هذه النقطة في انتقاده لكتاب برغر.

[19] خلال السنوات الأخيرة رأت النور أبحاث تتفحص حالات مشابهة من فترة الانتداب البريطاني. انظر Lockman ١٩٩٦؛ Bernstein ٢٠٠٠.

[20] في كتاب عاموس عوز (٢٠٠٢) "قصة عن الحب والظلمة" ظهر طرح مشابه بالنسبة للإشكنازيين أبناء الطبقة المتوسطة – الدنيا والذين لا تحظى قصتهم بالخلاص نظراً لأنها ليست قصة ممثلة.

[21] عن إخراج العرب من الرواية في نصوص علماء الاجتماع والمؤرخين أنظر رابينوفيتش ١٩٩٣؛ رام ١٩٩٣ – Kimmerling ١٩٩٢.

[22] للاطلاع على مثال حديث أنظر البيوغرافيا التي كتبتها أنيتا شابيرا (٢٠٠٤) عن يغئال ألون.

[23] ماري دغلس (٢٠٠٤) طرحت مغزى "التلوث" الذي يبدأ باللقاء بين المجموعات. هومي ك. بابا (Bhabha ١٩٩٤) كتب كثيراً عن المهجنين ... أنظر أيضاً لبيء وسفيدربرغ ١٩٩٥.

[24] في هذا السياق تتبادر إلى الذهن حالات يجد فيها العرب أنفسهم يمثلون الأمة (الإسرائيلية) مثلاً في الفرق والأندية الرياضية على الرغم من التمييز الذي يتعرضون له في النظام الاثنوقراطي الإسرائيلي. وقد

شكل فوز دانا إنترناشيونال في مسابقة الأغنية الأوروبية (الإيرفزيون) واختيارها من قبل لجنة رسمية (إسرائيلية) لتمثيل إسرائيل، مثالاً لافتاً للانتباه (زيف ١٩٩٩). السجال الذي تطور عقب فوزها سعى إلى الفصل بين الرسالة المخيفة المرتبطة بتمويه وطمس معايير الجنوسة، والتي عبرت عن نفسها سواء في شخصية المطربة أو في العرض الذي قدمته، وبين الرغبة في التفاخر بإنجاز قومي.

[٢٥] يستخدم الباحث توم سيغف أحياناً منطقاً مشابهاً لمنطق برغر. فهو أيضاً يعمل على هامش الأكاديمية، ويكثر من وصف تجربة البحث التي خاضها. أنظر سيغف ١٩٩٩.

[٢٦] حول استخدام مختلف للمصطلح، وسط التطرق إلى الخطة نشوء الدولة، أنظر أوفير ١٩٩٩.

[٢٧] هذا التمييز هو تمييز جغرافي معروف أنظر Tuan ١٩٧٧.

[٢٨] الفرق بين المجال والمكان يُذكِّرُ إلى حد ما بالمفهوم التوراتي القائل أن "أرض إسرائيل" موعودة لشعب إسرائيل، لكنها ليست معطاة تلقائياً، بل يمكن أن تعطى له أو أن تؤخذ منه بناء على أفعاله وتقصيراته. زالي غوربيتس وغدعون أورن (١٩٩١) ناقشا مسألة: هل يمكن للشعب اليهودي "الجلوس في المكان" أم أن هناك "شوكة – مزروعة دائماً – في فراش المكان" تُلزم الشعب بالبقاء والنظر من الخارج؟ إحدى الإنتقادات لمقالة الكاتبين المذكورين رأت أن "المكان الإسرائيلي"، وبالقطع عدم القدرة على "الجلوس" فيه جلسة هادئة ودائمة، يمكن فهمهما فقط في سياق الصراع اليهودي – العربي (كيمرلنغ ١٩٩٢). برغر تقوم بعملية مشابهة لفوربيتس وأورن بسعيها إلى إخراج، انتزاع، المجال من محليته، رغم أن المكوث في المجال يعتبر دوماً، من وجهة نظرها أيضاً، مكوثاً مؤقتاً في جوهره.

[٢٩] عوز الموغ (١٩٩٧ ص١٢) كتب في كتابه "الصباري: صورة عن قرب": "آمل أن لا يُنظر إلي كإنسان سعى إلى تدنيس ذكرى الأموات، وإنما العكس، كإنسان حاول أن يقيم – بواسطة مؤلفاتهم – نصباً متواضعاً لحقبة مهمة جداً في تاريخ شعبنا".

[٣٠] أود التنويه ببحثين آخرين يتفحصان "تلالاً أثرية" مشابهة ويميزان بين المجال وبين الملكيات المتبدلة له. سوزان سليموفيتش (Slymov–ics ١٩٩٨) بحثت "عين حوض/عين هود" فيما تتبع حاييم براشيت (٢٠٠٣) تاريخ تسلسل جبلية/غبعات علياه. وخلافاً لمنطلق برغر المبدئي، يمركز سليموفيتش وبراشيت على القصة القومية ويصفان إستبدال التواجد الفلسطيني – الذي يشكل نقطة الإنطلاق أو الأساس – بالتواجد الإسرائيلي.

[٣١] حول صور تل أبيب أنظر أيضاً شفارتس ١٩٩٨.

[٣٢] عن تاريخ شارع ديزنغوف أنظر عزرياهو ٢٠٠٠.

[٣٣] حرب الخليج الأولى أعادت أيضاً الصراع الإسرائيلي – العربي إلى تل أبيب ودمجته مجدداً في الرواية القومية، على الأقل لفترة من الزمن. فالجدل حول نزوح السكان عن تل أبيب لامس لب المسألة: هل تل أبيب هي معقل قومي – صهيوني لا يجوز التخلي عنه أثناء القتال أو الحرب، أم أنها مجرد مكان سكن مخصص لأن يخدم سكانه، وأنها أصبحت، تأسيساً على هذا الفهم، في عصر ما بعد صهيوني؟!

[٣٤] هذه الأسئلة تبادرت إلى ذهني عقب قراءتي لنقد كتب أمنون راز–كركوتسكين (١٩٩٨).

المقال مترجم عن العربية

الآن في الأسواق

إعلام في مهب الريح

أوراق اسرائية 31